روايات مصرية للجيب

د. أحمد خالد توفيق

40

سافارى

عن الطيور نحكى

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهال متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك ـ كما قلنا ـ من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

* * *

العــــودة

أفسحوا الطريق يا سادة ..

لقد عاد (علاء عبد العظيم) صديقكم المخلص وخادمكم المطيع ..

أخيرًا تنتهى أيام جنوب أفريقيا حيث النفى عند طرف العالم الجنوبى . كالعادة رأيت الكثير مما لم يره أحد ممن عاشوا هناك أعوامًا .. لم أستمتع بوقتى فى مشاهدة المزارات السياحية ، لكننى كدت أموت عدة مرات .. عصابات سطو مسلح .. حوادث سيارات .. كالاهارى .. بوشمن .. ملاريا ..

وقعت فى الحب مرة مع الفتاة العنكبوت التى تأتى متأخرة دومًا ، وأحبتنى ساحرة أفريقية تهوى العقارب .. حقًا كانت فترة صاخبة فى حياتى ، لكننى عدت ..

هيا اجلسوا يا سادة .. أنا أعرف هذه الوجوه .. هى ذات الوجوه التى ألقاها دومًا هنا فى (أنجاونديرى) بنفس النظرات . سوف أحكى لكم عن رحلتى إلى هنا .. كيف شعرت بالحنين يغمرنى كأننى فى نهاية الطريق من المطار سأكون فى شبرا .. وأرى أخى وأمى ..

سأجفف عرقى .. معذرة .. لقد اتسخ المنديل .. إن على بشرتى أطنانًا من الغبار من وعثاء السفر .. هل عندكم عصير ليمون ؟ .. لا ؟ .. كيف تتحملون الحياة من دون عصير ليمون بارد ؟ .. لا بأس .. سأقبل كوبًا من الماء البارد بشرط أن يتكاثف عليه بخار الماء من الخارج .. نحن لا نمزح هنا ..

كلهم بخير .. لقد تحققت من ذلك .. المدير البدين و (شيلبى) و (بسام) .. (جيديون) ما زال فى المشرحة مع مساعده الكورى .. ما زال (سباتزانى) يزأر فى قاعات الجراحة ... (ليفى) اللعين فى إجازة فى وطنه المسروق ..

(برنادت) بخير .. صحيح أنها ازدادت نحولاً ، لكن من قال إن النحول ليس من الصفات التى تحببنى فى المرأة ؟..

(برنادت) الرقيقة .. (برنادت) الباسلة .. (برنادت) الملائكية التى أمسكت بيدى ونظرت فى عينى ، ولم تتكلم .. سوف تعرف كل شىء .. إنها ترى روحى وذكرياتى مباشرة ، لكن الوقت مبكر كى أقلق بصدد هذا ..

أعرف أن إقامتى مؤقتة وأننى سأعود إلى مصر قريبًا ثم إلى كندا مع برنادت .. لكنى رحت أجوب الوحدة كالمجنون أتشرب كل شىء .. أوشك على تحسس الجدران فى حب ..

(سافارى) يا سادة .. (سافارى) حيث كتب علىَ أن أقضى باقى حياتى لو لم يطردونى ..

المزيد من الأوبئة .. من الساعة السابعة مساء . من توبيخ (باركر) وشراسة (هيلجا) وسماجة (ليفى) وبلاهة (بودرجا)...

ما زال من الجميل أن يوجد المرء ، وأن يملأ المكان والزمان ..

والأهم أن يملأ المكان والزمان اللذين يروقان له ..

وكما أقول لكم دومًا يا أعزائى : أعرف أن أشياء مهمة ستحدث اليوم .. لكم أن تراهنوا على هذا ..

* * *

تقرير (توماس كايندرد)

إنه الفريق (هـ)...

هل تراهم ؟... هل تلمح هذه الوجوه الصارمة ؟

لو كان هذا فيلمًا سينمائيًا لرأيتهم يمشون صفًا بالعرض ، ويتقدمون نحونا بالسرعة البطيئة من عمق الكادر .. هذا التأثير الذى يوحى بالرهبة والهيبة والذى يقلده الجميع فى الأفلام العربية اليوم ...

كلما رأيتهم يمشون فى الممر أصدرت بفمى تلك النغمات التصاعدية القدرية المميزة لمقطوعة (هكذا تكلم زرادشت) تحفة (شتراوس)....

إنه الفريق (هـ) ..

تشعر بأنهم جاءوا من عالم آخر ـ على تباين جنسياتهم ـ ومن خامة واحدة ـ على تباين وجوههم ـ وأنهم يهتمون بشىء واحد على تباين اختصاصاتهم ...

إنه الفريق (هـ) ...

يعرفون ما يقومون به .. يعرفون كيف ينفذون خططهم ..

وأعتقد أن أيامى معهم كانت فريدة من نوعها ..

* * *

أقدم لك نفسى .. أنا (توماس كايندرد) .. محرر الشئون الطبية فى مجلة (أدفانسز Advances) . هل تقرؤها ؟.. أعتقد أن الإجابة هى (لا) ، والسبب أن مجلتنا ليست (التايمز) أو (النيوزويك) بحال . إن لنا عددًا محددًا من القراء الذين هم أقرب إلى الأتباع السريين Cult لدين غريب. هم فقط يثقون بنا ويعرفون أهمية ما تقول . لكن إن كان هناك شىء أفخر به فهو أننى أسعى للدقة والحقيقة فى كل ما أقوم به ..

سأقدم لك مجريات التحقيق الصحفى الذى قمت به فى هذه القصة ، وإن كنت أخبرك مقدمًا بأن هذه ليست الصيغة النهائية التى ستظهر على صفحات مجلتنا .. إن الواقع يحتوى الكثير من الهراء والحشو الذى لا داعى له ، وقديمًا قال السينمائيون إنك تحتاج إلى عشر دقائق كى (ترتدى ثيابك .. تعبر الشارع .. تثرثر مع بائع الصحف .. تخرج ورقة من العملة .. تعطيه إياها .. تأخذ منه الجريدة .. تأخذ الباقى لك ثم تعود لدارك) .. السينمائيون قالوا إنه يمكن دائمًا تلخيص الموقف بصورة واحدة لك وأنت تأخذ الجريدة .. هذا يعطيك ما هو مهم فقط ، وهو ما سيظهر فى مجلتنا .. لكن بالنسبة لك يمكن دائمًا أن نتعاطى المزيد من التفاصيل ...

سأحاول أن أنقل لك تجربتى خلال تلك الأحداث العاصفة التى مرت بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ، خاصة بعد تشكيل الفريق (هـ) .. ويمكنك بهذا أن تستخلص القصة كاملة بلا تدخل منى تقريبًا ..

وحدة سافارى

وحدة (سافارى) فى (الكاميرون) .. مكانها خارج (أنجاوانديرى) شمال البلاد . بالضبط عند حدود الكاميرون مع نيجيريا . لا شك فى أن (نيجيريا) ابتلعت الكثير من شمال (الكاميرون) ، فلم تنج (أنجاوانديرى) إلا بمعجزة ما .

وحدة (سافارى) لها طابع محبب من النظافة لكنها بسيطة جدًا خالية من البهرجة . إن هذه الوحدة تعيش بالكامل على الإعانات الخارجية لأنها منظمة لا تهدف للربح .

يعرف العالمون بهذه الأمور أن هذه المنظمة أنشئت عام 1957 فى (كينيا) بعد ما بدأت مجرد فكرة فى ذهن البارون النمساوى (فون رامشتيت) ، ثم سرعان ما نمت المنظمة وصارت لها وحدات فى أكثر من بلد أفريقى .

يعرف أطباء طب المناطق الحارة ما أضافته (سافارى) إلى هذا العلم .. إن العالم يعرف الآن وباء (الناكالانجا) و (الكافاموجورو) بفضل علماء هذه الوحدة .

هنا يجب أن أقول شيئًا .. مزية (سافارى) العظمى ـ ربما الوحيدة ـ هى فى تلك المجموعة المنتقاة من العلماء العاملين

فيها .. لقد تم اختيارهم بعناية بالغة ، فيما عدا هذا لا تملك الوحدة أجهزة متميزة باهظة التكاليف ، ولا تملك إمكانات منظمة الصحة العالمية .. لكنها ـ (سافارى) ـ منظمة مشاكسة تصر على أن تكون فى الصورة بأى ثمن ، وكثيرًا ما تنجح ..

قصتنا التى نحكيها لكم هنا نموذج على هذه الحقيقة .. من جديد تواجه وحدة (سافارى) خطرًا غير مألوف ، ومن جديد تواجهه بحكمة علمائها فهل تنتصر ؟

★ ★ ★

بسام بو غطاس

كان لقائى الأول مع الطبيب التونسى الشاب فى كافتيريا الوحدة ..

حينما ترى ملامح هذا الفتى لا تجد داعيًا للسؤال عن جنسيته ، ولو زعم أى شىء غير أنه من دول شمال أفريقيا لاتهمته بالنصب .. هذا الوجه النحيل الأسمر والشعر الأشعث لا يمكن أن يحملهما إلا تونسى أو مغربى أو جزائرى ..

وهكذا اضطررت لاستعمال الفرنسية التى لا أجيدها تمامًا ، لكنهم يجيدونها بشكل شبه مطلق ..

قال (بسام) وهو يمضغ الشطيرة التى قدمها لنا المطعم :

ـ « ما زلت لا أحب هذا الذى يكلفنى به مدير الوحدة .. د. (بارتلييه) .. أحيانًا أشعر أن هذا الرجل يتعمد تعذيبى .. »

قلت باسمًا وأنا أفتح علبة مياه غازية :

ـ « كلنا ذلك الرجل .. لكن لا تأخذ الأمور على هذا المحمل .. يجب أن يقوم أحدهم بهذه المهمة التى لا يقبل سواك القيام بها .. »

وسألته عن بداية القصة .. فراح يتذكر ...

قال (بسام) :

« فى البداية كنت مرهقًا .. مررت بظروف صحية غير تقليدية حيث اكتشفت عيبًا خلقيًا معينًا فى قلبى . وكانت لهذا تبعات معينة .. صحيح أننى الآن أعرف أن الأمر غير مقلق ، لكننى قضيت فترة من أسود أيام حياتى . بعد هذا بدأت أحاول أن أسترد إيقاع حياتى المألوف . كنت قد فقدت بضعة كيلوجرامات من وزنى وخطر لى أن أول ما أريده هو أن أحسن تغذيتى قليلاً . بينى وبينك أنت ترى طعام الوحدة .. إنه لا يشبع صرصورًا فاقد الشهية »

وافقته على هذا الجزء بشدة ، وأنا أتأمل الطعام الموضوع على المنضدة أمامنا . هذا هو الحد الأدنى من الكمية والجودة كى لا يموت الأطباء جوعًا. فيما عدا هذا يترك الأمر للأطباء كى يحسنوا طعامهم بالجهود الذاتية .

قال (بسام) :

« بمجرد أن حصلت على فترة راحة ، قررت أن أتجه إلى القرية لشراء بعض لوازم الطعام .. إن السوق قريب ورؤيته تبعث البهجة فى النفوس . كل هذه الخضر والفواكه الطازجة فى مكان واحد ، وهى هبة الله التى منحها لأفريقيا ولم يستطع المستعمر أن ينتزعها . صحيح أن التصحر بدأ يدمر هذه الخصوبة لكنه لم يصل لنا لحسن الحظ .

ابتعت الكثير من الأشياء ، ثم دنوت من بائع كاميرونى يعلق دجاجًا مذبوحًا تم انتزاع ريشه .. كانت ثمة لافتة معلقة فوق رأسه كتبت بخط بدائى ساذج .. هناك من أمسك بإصبع طبشور وخط بالعربية هذه الكلمة على قطعة خشب كانت غطاء صندوق صابون ... (حلال) ...

نحن المسلمين ندقق كما تعلم فى موضوع الذبائح هذا ، وهذا يجعلنا لا نلتهم البروتين الحيوانى تقريبًا هنا ، باستثناء الأسماك .. وإلا فهى تلك الفرص النادرة التى نتعامل فيها مع جزار يقدم لنا الذبائح الحلال . هناك مسلمون فى (أنجاونديرى) والقرية ، وهم يرتبون لنا الحصول على هذه الذبائح ، أما فى وحدة (سافارى) نفسها فمن النادر أن نأكل البروتين إلا شرائح السمك (الفيليه) التى يقدمونها لنا هنا ، والتى يمكن استخدامها كنعال أحذية من حيث المذاق والقوام والمنظر والرائحة ...

هكذا اتجهت للرجل فى حماس .. كان يضع طاقية بيضاء على رأسه وفى فمه تتألق أسنانه الذهبية التى يكشف عنها كلما ضحك .. وكان التفاهم سهلاً ... أنا أريد هذه .. أنت تدفع لى هذا ...

انتقيت دجاجتين وطلبت منه أن يلفهما لى .. سأحتفظ بدجاجة فى ثلاجة المطبخ ، وآخذ أخرى إلى حجرتى بالوحدة .. هناك سأعد لنفسى وجبة لا بأس بها أبدًا .. إن الطهى داخل الغرفة خطأ فادح

يدنو من الجريمة ، لكنى لو أحسنت ترتيب الأمور لانتهيت من قضم آخر عظمة فى الدجاجة قبل أن يشم أحد الرائحة .. إن معنوياتى ترتفع .. لا شىء كالدجاج ينعش أفكارى إلى هذا الحد .. يقولون إن الموسيقا غذاء الروح وأنا أضيف الدجاج لهذه المقولة كذلك ....

كنت واقفًا أتأمل الأقفاص التى يقف فيها الدجاج يرمقنى بتلك النظرة البلهاء الغبية . خطر لى أن هذه الكائنات حمقاء فعلاً وهى تقف هنا تلتقط الطعام ، وتراقب بلا اكتراث ذبح إخوتها .. لا يعنيها إلا موعد الوجبة التالية .. سجن ورائحة كريهة وطعام ردىء ثم ذبح يأتى فى أى وقت وبلا جريرة ..

هنا ابتسمت ..

الحقيقة أن على من كان بيته من زجاج ألا يقذف الآخرين بالحجارة .. هذا الوصف الذى أطلقته على الدجاج يصلح لى وبالدقة ذاتها !.. فقط أنا أرتدى السترة والبنطال وأضع العطر وأعيش فى سجن أكبر متباعد الجدران .. لكن النتيجة واحدة ..

هنا حدث شىء لم أستوعبه إلا بعد فترة ، وبعد أن خرجت من دوامة الأفكار التى تبتلعنى لأسفل ...

كانت تلك الدجاجة تقف فى هدوء تلتقط طعامها ، مبعثرة بقدميها المزيد منه وهى تصدر تلك الأصوات القصيرة الحادة .. فى اللحظة التالية الدجاجة على أرض القفص ميتة والدم ينزف من مؤخرتها !

نظرت فى ذعر إلى البائع فتبادل معى ذات النظرة المذعورة .. هو مثلى لم ير شيئًا كهذا قط ...

سألته فى توتر وأنا أتحسس شاربى :

- « هل .. هل هو مريض ؟ »

هز رأسه ، وقال فى حيرة :

- « لا .. لا .. دجاجى سليم تمامًا .. »

ثم فتح القفص وأخرج الدجاجة التى كانت تفتح منقارها وتلفظه .. أى تغالب سكرات الموت .. وتفحص مؤخرتها فى خبرة ، ثم قال وهو يلقيها على الأرض :

- « لابد أن الدجاج الآخر مزق مؤخرتها .. هذه أشياء تحدث دكتور .. كان لدى ديك يمزق كل دجاجة هنا حتى تتدلى أحشاؤها .. »

نظرت للمشهد الرهيب وارتجفت ...

وقدرت أننى سأحتاج إلى وقت أطول من اللازم كى أستعيد شهيتى وألتهم الدجاج الذى ابتعته ..

* * *

كن خائفًا .. كن خائفًا جدًا !

* * *

سألت الطبيب الشاب (بسام) :

ـ « هل كانت هناك أية دجاجة شرسة المنظر فى القفص ذاته ؟.. دجاج من الطراز الذى يثير المتاعب مما يؤكد كلام الرجل ؟ »

هز رأسه وهو يفتح علبة مياه غازية ، وقال :

ـ « لم أر .. لكن الرجل يملك الخبرة كما تعرف .. لن تجد دجاجة تحمل مطواة وقد ربطت عصابة على رأسها لو أردت رأيى »

ـ « حسن .. أرجو أن تكمل .. »

قال د. (بسام) :

« على أن الجوع ينسيك أى شىء .. الآن أفهم كيف يلتهم الناجون من حوادث الطائرات فى الصحراء بعضهم .. فى تلك الليلة ظفرت بالعشاء الذى حلمت به .. قمت بدعوة صديقى المصرى (علاء عبد العظيم) لغرفتى .. لقد عاد لتوه من انتداب فى جنوب أفريقيا .. إنه متزوج وزوجته امرأة ممتازة تدعونى إلى العشاء من آن لآخر ، لكنى أعرف أنه يحلم بجلسة كهذه .. نوع من مغامرات الشباب حيث يتسلل ـ كالقتلة ـ إلى حجرتى ، ونجلس معًا على الأرض ، ثم نفتك بالدجاجة فتكًا .. كنت أتمنى لو كان هناك بعض (الكسكسى) لأن التونسى لا يستطيع الحياة من دونه ولا من دون زيت الزيتون ، لكنى لا أجيد طهيه للأسف .. لهذا اكتفيت بإعداد بعض الحساء مع الدجاجة المحمرة ..

لقد فتك (علاء) بأكثر الدجاجة فتكًا .. لا أعرف مدى نجاح حياته الزوجية ، لكنى أقدر أن امرأته ليست بارعة فى الطهى إلى هذا الحد .. هذا الفتى جائع كطفل صومالى فى مجاعة .. المفترض منى أنا العزب أن أفعل هذا بينما هو المتزوج يكتفى بالمشاركة على سبيل المجاملة .. الحقيقة أن ما حدث هو العكس .

وفى نهاية الأمسية تمطى وتجشأ وأفرغ آخر قطرات من علبة المياه الغازية فى جوفه ، ثم قال :

ـ « لدينا فى مصر مثل يقول : الضيف المجنون يأكل ويقوم .. لا أعتقد أنك تحسبنى عاقلاً .. »

قلت له فى صدق :

ـ « ثق أننى أعرفك جيدًا .. لو كان المجانين ينصرفون بمجرد انتهاء وجبتهم ، فجدير بك أن ترحل حالاً ! »

أمضيت أيامًا عدة فى الوحدة أمارس عملى كالمعتاد .. كان عملى متواصلاً مرهقًا .. وأعتقد أن هذه من الأسباب التى جعلتنى ممهدًا لما حدث بعد هذا .. أنت تعرف أن (الإنترفيرون) الداخلى ينهار مع الإرهاق ؛ لذا أحسب مستواه قد انخفض فى جسدى إلى حد غير مسبوق ..

هل كان ذلك يوم الثلاثاء ؟.. أعتقد هذا ...

كنت فى قسم التوليد منهمكًا فى توليد امرأة كاميرونية ، وكان رأس الجنين قد برز بالكامل .. وأنا أصرخ مطالبًا إياها بأن تدفع أكثر .. هنا شعرت بأن صراخها يأتى من على بعد أميال .. صوت كلامى أنا الآخر يأتى من عالم آخر .. عرق بارد ينبت على جبينى .. فجأة شعرت بالغثيان وشعرت بأنى تعس واهن متورط منهك ..

صوتى يناديها من بعيد .. آلاف الأميال .. آلاااااااااااااااااااف الأميال .. لا أعرف أن هذا صوتى . أنا أتابع محادثة بين شخصين .. أحدهما طبيب والأخرى مريضة ...

الرأس يدور .. الجنين يخرج بتلك الطريقة الإعجازية التى ...

ثم لم أعد هناك ..

لقد ساد الظلام .. فقط أشعر بصفعات على وجهى من حين لآخر ...

فقط أعرف أننى محموم وأننى أرتجف ....

وصحوت فى عنبر الحميات .....

* * *

كان أول من جاء لى هو (علاء عبد العظيم) .. وقد سمع الخبر .. أعتقد أن هذا الفتى حريص على أن يتولى مهمة تكفينى ودفنى يومًا ما ، فأنا لا أراه إلا فى الكوارث .. ولو مت وحدى فى ألاسكا لوجدته فجأة هناك يتولى إغماض عينى ...

تحسس جبينى بظهر يده ، ثم صاح فى رعب :

ـ « إن حرارتك تصلح للخبيز .. ماذا يدور هنا ؟ »

قلت منهكًا :

ـ « والأسوأ هو أننى مصاب بالـ ... بالـ ... بالرجـ .... جـ ... فه .. فه .. فه .. »

ورحت أرتعش كالمجنون كأنى أبرهن له عن صدقى . لدينا بدائل قليلة فى الطب تبرر هذه الرجفة .. الملاريا .. التهاب المجارى الصفراوية .. التهاب الحالب .. داء الفيل .. صديد فى موضع ما ..

قال (علاء) فى قلق :

ـ « أنت تتعاطى أقراص الوقاية من الملاريا .. أعتقد أننى يجب أن أطلب رأيًا .. »

لحسن الحظ كان (آرثر شيلبى) أستاذ طب المناطق الحارة الأمريكى قد عاد من (الولايات) ... أنت تعرفه .. إنه طاووس متبختر أقرب لممثل مسرحى منه إلى عالم لكن (علاء) يثق به كثيرًا .. يقول إن عليك أن تتعلم كيف تتحمله قبل أن تتعلم كيف تتعلم منه !

لم يأت (شيلبى) وحده وإنما كان معه الطبيب الكاميرونى (دولا لوبولو) مختص الأمراض الباطنية ، ويقال إنه بارع حقًّا .. (علاء) يثق به وإن كنت لم أجربه قط ...

سألنى (شيلبى) وهو يلصق المسماع بصدرى ، وخصلة شعره الأشيب تتدلى على عينه اليمنى كالعادة :

ـ « هل ثمة سعال ؟ »

سعلت كأنما أنا أستوثق من تجربة السعال .. هل مر بى شىء كهذا من قبل ؟.. كح كح !.. ثم فكرت قليلاً ، وقلت :

ـ « القليل منه .. »

أشار بإصبعه إلى دائرة على صدرى وطلب من الكاميرونى أن يضع مسماعه هناك ، ففعل .. وللحظة ساد صمت رهيب وتبادل الرجلان النظرات ... أكره هذه النظرات طيلة حياتى منذ رأيت نظرة طبيب الأسنان فى المدرسة وهو يرمق فمى المفتوح .. لهذا أكره الأطباء برغم أننى منهم !

ـ « سأوصى له بأشعة على الصدر .. هذا مهم وعاجل .. »

هذه كانت من (شيلبى) طبعًا .. فسأله (علاء) فى قلق :

ـ « هل هو التهاب رئوى ؟ »

قال (شيلبى) وهو ينزع مسماعه ويعلقه حول عنقه بأسلوب المشنقة الذى يفضله :

ـ « لا أعرف .. ثمة شىء قذر هنالك بالداخل .. هناك ضوضاء أسمعها وبرغم هذا لا يسعل .. أعتقد أنه التهاب رئوى غير نمطى .. إن الأشعة ستبين لنا كل شىء .. »

بعد قليل كانوا يحملوننى إلى قسم الأشعة ......

يجب أن أقول إن تدهور حالتى كان يتقدم بشكل غير مسبوق .. عظامى كلها كانت تتوجع .. حرارتى ترتفع .. التنفس صار أصعب ... لا سعال لكن الهواء صار ثمينًا بالفعل ..

بعصا ساحر أعبر البوابات العملاقة التى تفصل المراحل المختلفة ما بين مرحلة الإرهاق إلى مرحلة التوعك إلى مرحلة المرض الشديد .. نعم أنا مريض جدًا الآن .. أنا مريض وخائف ومذعور ..

منذ دقائق كنت أقف فى منطقة الأمان الخاصة بتلك الفيروسات العابرة (فيروسات الأربع والعشرين ساعة) التى تأتى وتذهب دون أن نعرف ماذا كانت .. تلك الوعكات التى تشفى قبل أن نعرف أننا متوعكون .. الآن أنا صرت فى ساحة المرض المخيفة ..

جعلنى هذا فى أسوأ حال وهم يسلطون أشعة د. (رونتجن) الرهيبة على صدرى .. خذ شهيقًا .. شليك شليك .. شكرًا .....

وبعد دقائق عرفت أنهم رأوا الأشعة ...

لم أعرف ما رأوه لأننى بالفعل كنت قد انزلقت فى عالم الغيبوبة مفتوحة العينين Coma Vigil .. لم أكن أعرف حرفًا عما يدور من حولى ....

وأنت تعرف باقى القصة على كل حال ...

لا أعرف إن كنت قد أفدتك ، لكنك سألتنى بأمانة عن خبرتى الخاصة فليس بوسعى أن أقدم لك تقريرًا عما تم وأنا فى الغيبوبة .. لقد عرفت هذا فيما بعد ..

* * *

آرثر شيلبى

الأستاذ الأمريكى (آرثر شيلبى) اسم مرموق فى طب المناطق الحارة .. والأهم أنه لو كان ممثلاً لحقق نجاحًا كبيرًا ، فهو متأنق للغاية ، وله ذلك الوجه المربع مشقوق الذقن الذى يصلح لأفلام الخمسينات التى تظهر الرجال أقوياء الشكيمة شديدى الرقة مع الحسناوات .. يرفع نظارته فوق خصلات شعره الأشيب ولا يكف عن المزاح ، ولكنك تشعر بأن كل دعابة ذكية تم الإعداد لها من قبل بزمن طويل ..

هم يحبونه هنا لأنه رجل لطيف المعشر .. وإن كان البعض يعتبرونه ممثلاً من الدرجة الأولى ، وأن انفعالاته ليست انفعالاته ، لكنها ما يريد أن يعتبره الناس انفعالاته . على أننى أقر له بالشجاعة لدى مواجهة عملاق مثل شركة (فيروجكس) التى لم أعد أخشى أن تقاضينى الآن . دعك من موقفه من قصة الأشلاء هذه .

كان قد جاء من الولايات من فترة وجيزة ، حيث تقيم أسرته حاليًا فى (إيلينوى) . توجهت له وسألته عن تلك القصة العجيبة ، فقال وهو يحك خصلات شعره :

- « لو حدث هذا فى أى موضع آخر لمر مرور الكرام ، لكن ليس مع (آرثر شيلبى) العجوز الذى يستحق كل مليم يحصل عليه ، وهو مبلغ مخيف لو عرفته .. الحقيقة أننى أعتبر نفسى طب المناطق

الحارة يمشى على قدمين .. يسألنى الكثيرون عن سبب اختيارى هذا الركن المهجور من العالم كى أمارس إمكانياتى ، فأقول لهم إننى هنا لأنهم يحتاجون إلى من هو مثلى كى .... »

هنا قاطعته بأدب :

ـ « هل لك أن تحكى لى القصة ذاتها يا دكتور (شيلبى) ؟ »

قال د. (شيلبى) وهو يحك خصلات شعره الأنيق :

ـ « منذ البداية وحين فحصت تلك الشاب العربى قدرت أنه مصاب بالتهاب رئوى لا نمطى .. »

ـ « هل نحدد معنى الكلمات أكثر ؟ »

ـ « بلا تفاصيل كثيرة ، عندما تصطدم بحالة التهاب رئوى تثير دهشتك فيها قلة الأعراض الصدرية وقلة العلامات السريرية مقارنة بما تكشفه أشعة الصدر .. هذا هو الالتهاب الرئوى اللانمطى وهو يختلف عن الالتهاب الرئوى الذى يعرفه كل طالب طب .. المريض نفسه يعرفه على الأرجح .. »

ـ « كانت هناك أعراض تشبه الإنفلونزا .. وقد وضعنى هذا أمام علامات استفهام كثيرة .. هناك عدوى فيروسية ما .. ولما أجرينا الأشعة على صدر الفتى تأكدت من دقة تشخيصى .. من النادر أن يخطئ تشخيصى ... ربما منذ عشرين عامًا ... »

كان الفتى يتدهور بسرعة .. لا أعرف السبب لكن وعيه كان يفلت منه .. نحن لم نعتد هذا المشهد إلا فى كبار السن وفى بعض حالات التهاب الصدر الناجم عن بكتيريا (لجيونيلا) ..

لهذا أصدرت أوامرى بأن ينقل إلى العناية المركزة ..

★ ★ ★

كن خائفًا .. كن خائفًا جدًا !

★ ★ ★

أمرت كذلك بقياس الغازات فى دمه ، وأن يعطى مستحضر (التتراسيكلين) .. هذا المضاد الحيوى منسى تقريبًا وسط زحام المضادات الحيوية الجديدة ، لكنه يعالج عددًا لا بأس به أبدًا من أسباب الالتهاب الرئوى اللانمطى .. أمرت كذلك بتحليل بصاقه وإجراء مزرعة عليه ، وأمرت أن يعامل كحالة معدية إلى أن يثبت العكس ..

الحقيقة أن من كان يحتاج إلى العلاج فى هذه اللحظات هو صديقه المصرى الشاب د . (عبد العظيم) .. كان متوترًا يرتجف والعرق ينمو على جبينه ، وقد راح يسألنى فى لهفة عما إذا كان بخير .. قل لى إنه بخير ..

قلت له بطريقتى العملية العلمية :

ـ « لا هو ليس بخير .. لكننا نحاول أن يكون كذلك ! »

كان طبيبًا مثلى ، لكن عقله شل .. أعرف هذا العرض الذى يصيب الأطباء لدى مرض صديق أو قريب لهم .. إنهم يتحولون إلى مهندسين أو محامين أو عمال بناء .. أى شىء ما عدا الطب .. يوقفون ذلك الجهاز الذى يمارس الطب فى عقولهم ويفضلون أخذ رأى الآخرين فى كل شىء ..

* * *

على أن نتائج غازات الدم ظهرت وقد بينت تدهورًا مخيفًا فى وظائف رئتى الفتى .. لم يبق لديه فى رئتيه ما يكفل له الحصول على هواء نقى .. بالفعل كان وعيه قد بدأ يتدهور بشدة ، وقد بدأ لونه يميل إلى الأزرق .... إن علامات الفشل التنفسى واضحة جدًا ..

ويلى !.. أنا أعرف كيف تتدهور حالات الالتهاب الرئوى اللانمطى هذه بسرعة لا تصدق .. أنت تتعامل مع المريض كحالة برد عادية ، ثم تفاجأ بأنه يفلت من بين يديك بسرعة غير مسبوقة ..

طلبت أن يأتى أحد أطباء التخدير .. سرعان ما ظهر د. (أردشير) الإيرانى ومعه أنبوب القصبة الهوائية .. كان متضايقًا من استدعائه

فى ساعة كهذه لكنه رأى الفتى فتبدل وجهه إلى نوع من الاكفهرار الجاد ، لقد غاب الفتى فى غيبوبة عميقة . ببراعة حقيقية أولج أنبوب القصبة الهوائية .. ثم قمنا بتوصيل الفتى إلى جهاز التنفس الصناعى ...

الجهاز يعمل بانتظام محدثًا ذلك الصوت الكئيب الكريه ....

ومعه يعلو صدر الفتى ويهبط ..

لا أعرف إن كان سيتحسن أم لا .. لكنى لا أعرف أفضل ....

ثم أشرت إلى د. (عبد العظيم) كى يتبعنى ..

جلست فى مكتبى بالوحدة ، فأشعلت سيجارًا .. ثم سألته فى رفق :

ـ « أنت أقربنا إلى صديقك العربى ، فهل يمكنك أن تذكر لى ما تعرض له فى الفترة الأخيرة ؟ »

فكر قليلاً .. راح يحك لحيته القصيرة الأنيقة ، ثم قال :

ـ « لا يوجد شىء .. لم يخبرنى بشىء خاص .. لكن كيف يمكن تتبع مصدر العدوى فى مستشفى ؟.. أنا شخصيًا فحصت خمسين مريضًا اليوم .. لو أصبت بالطاعون الآن فلن أستطيع تخمين المريض الذى أصابنى بالعدوى .. »

قلت له فى تؤدة :

ـ « بل الأمر سهل .. يكفى أن تتذكر أن أحد مرضاك كان مصابًا بالطاعون .. »

ـ « لم يذكر (بسام) أنه فحص مريضًا بعدوى تنفسية فى الفترة الأخيرة .. أعنى عدوى بهذه الشدة .. »

فكرت قليلاً ، ثم قلت له أن يبلغنى بأية تفاصيل يتذكرها ....

أنا أعرف التهابات الصدر اللانمطية هذه .. إنها مولعة باتخاذ صورة وباء .. حينما عرف العلم بكتريا (لجيونيلا) كان هذا لأنها تسربت من جهاز التكييف لتصيب حشدًا اجتمع لإحدى المناسبات الدينية .. ومن هنا اخذت اسمها من لفظة Legion .. أى (الجمع الغفير) ..

سوف تظهر حالات أخرى .. حدسى يخبرنى بهذا .. بل يؤكده ...

قبل أن يتجه (علاء) إلى الباب قال فجأة :

ـ « كان على خير حال حينما دعانى لوجبة الدجاج تلك .. »

هنا تصلبت ... أنا أعرف الشىء المهم حينما أسمعه ، لأن شعيراتى تنتصب حتى قبل أن أفهم ما هنالك .. كأنما رأسى يستوعب الأمور قبل عقلى .. لهذا استوقفته وسألته :

ـ « أية وجبة دجاج ؟ »

دس يديه فى جيبه فى إحباط ، وقال وهو لا ينظر لوجهى :

ـ « لا شىء .. قصة تافهة .. هناك تلك الدجاجة التى ابتاعها من السوق وقام بطهيها فى حجرتـه .. إنـه يفعل هذا من وقت لآخر .. ولما كان قد شفى من موضوع القلب هذا .. »

عدت أسأله فى جدية :

ـ « هو ابتاع دجاجة من السوق ؟.. منذ متى ؟ »

ـ « ربما أسبوع .. عشرة أيام .. لست متأكدًا ... »

فكرت فى الأمر ، ثم سألته :

ـ « أنت أكلت معه ؟ »

ـ « بل التهمت النصيب الأكبر .. »

ثمة شىء مألوف فى القصة ..

لكن لا .. لا تنس أننا فى أفريقيا هنا ..

هذا الاحتمال مستبعد تمامًا ...

* * *

الحالة الثانية والثالثة جاءتا فى الصباح ...

هذان فلاحان من القرية من قبائل (الباتنو) ـ لو أردت الدقة الإثنية ـ أصيبا بالتهاب رئوى لا نمطى حاد ، وقد اضطررت لوضعهما على جهازى تنفس على الفور ..

ما توقعته بدأ يتحقق ... هناك صورة وبائية لاشك فيها ..

وهكذا طلبت انعقاد مجلس حرب فى الوحدة ..

أريد رأى العجوز (بارتليبه) .. إنه عالم ميكروبات .. صحيح أن الأعمال الإدارية أخذت منه الكثير لكنى ما زلت قادرًا على أن أجد الكثير من العلم تحت طبقات الشحم تلك .. فقط يجب أن تصبر وأن تأخذ وقتك فى إذابة الدهن ..

أريد (مايرز) أستاذ الطب الوقائى الألمانى معنا .. هذا الرجل يعرف الكثير ولديه أفكار بارعة حقًا ..

أريد د. (دوالا) فهو بارع .. بالإضافة إلى هذا هو خير من يعرف كل شىء عن وطنه ...

ساد جو من التوتر العام وهذه الديناصورات العملاقة تتجه إلى مكتب المدير ... فهم من الثقل إلى حد أنك لا تراهم مجتمعين إلا كل سبعين عامًا .. ومعنى اجتماعهم كارثة ما ... تكاد تشعر بصوت صرير مفاصلهم وكأنهم ينفضون عنهم الغبار .. مثلما تنهض تلك الوحوش الأسطورية فى أفلام (راى هارى هاوزن) ..

وفى السابعة مساء اكتمل عقدنا فى غرفة المدير ، فنهض وطلب من السكرتيرة ألا تتلقى أية مكالمات أو تسمح لأحد بالدخول .. طلب بعض المياه الغازية والمعدنية ثم أغلق الباب ...

بدأت أقدم الموضوع بطريقتى المنظمة البارعة .. مع إضفاء لمسة خطورة على صوتى تجعل أيًا من كان يهتم بالأمر ..

قلت لهم :

ـ « ثلاث حالات من الالتهاب الرئوى اللانمطى فى ثلاثة أيام .. كل شىء يدل على أنه فيروس ... ثمة أعراض تشبه الإنفلونزا ثم يبدأ التدهور سريعًا جدًا .. يمكنك أن ترى المريض وهو يتدهور أمام عينيك ... أعتقد أن للمرض صفة وبائية ما .. »

ساد صمت رهيب ثم تكلم (مايرز) بلكنته الألمانية التى تحطم الأعصاب :

ـ « هل تتحدث عن ظهور حالات (سارز SARS) هنا فى الكاميرون ؟ »

كنا جميعًا نخشى ذكر هذه الكلمة ..

فى أوروبا كانوا يخشون الكلام عن الدرن فيطلقون عليه اسم (المرض ذو الاسم الكريه) .. وهو تكرار للعقائد القديمة التى تؤدى

إلى أن من يذكر اسم الشيطان يجده أمامه .. حتى القبائل البدائية تتعامل بنفس الشكل مع الموتى .. حيث يصير اسم الميت من قواعد (التابو) المعروفة ...

لسبب ما كنا نتعامل بذات المنطق البدائى ....

لقد صار العالم كله الآن يعرف اسم (سارز) بعد عام واحد من ظهوره ، وهو اختصار الحروف الأولى من (المتلازمة التنفسية الحادة الشديدة) .. ذلك الداء الذى ظهر فى مقاطعة (جواندونج) الصينية وأودى بحياة عدد لا بأس به من البشر .. وفى ذهن الكثيرين صار للاسم ذات رنين (الإيدز) .. لكن ما لا يعرفه غير الأطباء هو أنك تستطيع حماية نفسك من الإيدز أما (السارز) فلا ...! .. يمكنك دائمًا ألا تتركهم يحقنونك بحقنة ملوثة أو لا ترتاد هذا البيت سيئ السمعة ، لكن كيف يمكنك ألا تتنفس ؟!

قلت فى قلق :

ـ « لا أعرف .. لا يوجد ما يحملنى على اعتقاد هذا لكن يجب أن نكون حذرين .. »

قال (بارتلبيه) :

ـ « أريد أن أعرف متى وكيف نبلغ منظمة الصحة العالمية .. لو تأخرنا فى إبلاغهم لخاطرنا بتفاقم الحالة .. ولو طلبناهم قبل الأوان لجازفنا بفقدان السمعة .. تخيل أن يكون هذا إنذارًا كاذبًا .. »

كان يتحدث براحته لأن لغته الأم هى الفرنسية ، بينما يجب علىّ أن أحول جزءًا من عقلى إلى الفرنسية لأتكلمها ، وكذا يفعل (مايرز) ....

قلت فى كياسة :

ـ « أنا لم أقترح شيئًا .. أنتم تتخذون القرار . لم أطلب رأيكم إلا لتساعدونى . »

قال (بارتلبيه) فى توتر وهو يخط بعض الأشياء على الورق:

ـ « حسن .. النقطة الأولى هى معرفة الفيروس الذى سبب هذا الوباء ... إن اتضح أنه فيروس (سارز) يكن الأمر منتهيًا .. ليس بوسعنا التأكد هنا ؛ لذا سأتأكد من إرسال بعض العينات إلى فرنسا الليلة .. إلى معهد باستير .. »

ـ « العينات جاهزة .. »

قال د. (دوالا) وهو يفتح علبة مياه غازية :

ـ « أريد أن يقوم د. (مايرز) بتقصى حالات المرض .. من أين بدأت ؟.. ما الشىء الذى يجمع بين هؤلاء ؟ »

هز د. (مايرز) رأسه وخط هذه النقاط على الورق ...

استغرق الاجتماع نحو ساعة ، وقد قمنا بوضع النقاط المهمة .. الواجبات المنزلية التى تقع على كل منا ، ثم نهض د. (مايرز) معلنًا أنه سيقوم بإجراء المسح مع فريقه الصغير ...

وتفرق الاجتماع ...

بقيت بعض الوقت مع (بارتلييه) البدين .. كان يجفف بعض قطرات العرق التى نبتت على جبينه ، وقال لى لاهثًا :

ـ « وكيف حال هذا الطبيب التونسى .. (بو غطاس) أقصد . »

هززت رأسى فى قلق ...

أرجو أن يتعافى .. إنه يعانى أسوأ حالة فشل تنفسى رأيتها فى حياتى .. لا يوجد الكثير مما نقدمه له إلا إبقاء تنفسه بطريقة صناعية مع زيادة معدلات الأكسجين .. لو شفى من تلقاء نفسه فهذا حسن ....

ـ « أريد أن تعطوه جرعات من الريبافيرين .. »

قلت وأنا أشعل سيجارًا برغم نظراته المحتجة :

ـ « لم يحقق هذا العقار نجاحًا ساحقًا فى حالات سارز .. لكننا سنجرب .. بعد كل شىء يمكن ألا تكون هذه من حالات الـ (سارز).. »

كرر طلبه كأنما هو لم يسمعنى :

ـ « أعطه الريبافيرين .. »

ـ « حسن .. »

ثم بلهجة واهنة قال :

ـ « (آرثر) .. »

ـ « هم م م ؟ »

ـ « لا تدع كارثة تحدث .. أرجوك أن توقف هذا الوباء .. افعل شيئًا »

كأننى سأضغط زرًا يوقف الوباء لكنى أمتنع عن ذلك بسبب الكسل الشديد ...

قلت وأنا أتجه للباب ، وبصوت لم يسمعه هو :

ـ « حسن .. سأضغط الزر حالاً »

* * *

فى الصباح التالى توفى أحد المصابين الكاميرونيين ، وجاءت ثلاث حالات أخرى ...

أما د. (مـايرز) فقد حمل لنا أنباء مقلقة توصل إليها بعد المسح السريع الذى أجراه فريقه أمس ، وبمساعدة المـترجم (بودرجا) .. لقد استجوب المرضى حتى ذلك المريض الذى توفى صباح اليوم ، ولم يستطع طبعًا استجواب د. (بسام) ...

المضاعف المشترك الأكبر الذى يجمع هؤلاء هو تواجدهم فـى السوق أو تعاملهم مع الدجاج !

* * *

هانز مايرز

البروفسور الألمانى (هانز مايرز) الذى عمل لفترة لا بأس بهـا مع منظمة الصحة العالمية ..

ليس هنا من واحد لـم يعمل مـع منظمـة الصحـة العالميـة فـى وقت ما .. إنه مختص بالطب الوقائى ، وهو فرع من الطب شديد الأهمية .. أهم بكثير من أى فرع آخر ، لكنه يفتقر إلى الإثارة التى يجدها الناس فى الطب العلاجى . إن علاج مرضى الطاعون يبدو مثيرًا ، ولا يقارن بإعطائهم اللقاح .. لكن اللقاح أهم وأكثر جدوى ..

هو رجل ضئيل الحجم فى الخمسين من عمره ، أقرب إلى الوداعة والوهن ، لكنه حين يتكلم بلكنته الألمانية تلك وبصوته الجهورى تدرك أنك أمام شخصية كاسحة بالفعل .. أنتم تعرفون أنه أهم واحد فـى الفريق (هـ) ..

قال لى د. (مايرز) حين قابلته فى مكتبه :

ـ « لم يخطر ببال أحدنا موضوع إنفلونزا الدجاج هذه ... أنت تعرف أن هذه الأمراض لا تعتبر جزءًا من ترسانة الأمراض التى تفتك بأفريقيا .. لدينا كل شىء هنا فلا نتصور أن نضيف إنفلونـزا

الدجاج لها .. أعتقد أن الطقس الحار يلعب دورًا فى منع انتشار هذه الأمراض .. لابد من طيور مهاجرة وخنازير .. وهذه الأشياء لا تجدها هنا لكن تجدها بوفرة فى جنوب شرقى آسيا ..

لهذا كان من العسير أن نجد الخيط الذى يقربنا من هذه الحالات ، لكن المسح الوقائى يخبرك بأشياء كثيرة .. هناك مجموعة من المرضى .. اثنان منهم يبيعون الدواجن .. وواحد يعمل فى مزرعة دواجن .. الطبيب الشاب ابتاع دجاجًا قبل مرضه ...

هل هذه مصادفة ؟

هكذا قررنا أن نذهب إلى السوق أنا وفريقى من الشباب الممتازين .. استقللنا سيارة الوحدة اللاندروفر ونزلنا إلى القرية المجاورة ومعنا (بودرجا) مترجم الوحدة المعتمد .. إنه يفعل كل شىء فى الواقع لكننا نستعمله لفهم ما يقوله الأهالى الذين لا يجيدون الفرنسية طبعًا ..

كان السوق مزدحمًا كما لك أن تتوقع .. وقد شققنا طريقنا وسط حشود الأهالى والأطفال المتزاحمين ... كان وجودنا مريبًا .. كل هؤلاء البيض فى السوق ، وكان الأهالى يعرفون أننا نعمل فى (سافارى) .. هم يعرفون شعار الوحدة على سيارتنا .. لكن من النادر أن نتواجد معًا هنا .. لابد أن هناك كارثة ما ..

اتجهنا إلى أول بائع دجاج .. وكان يعلق الدجاج كالجثث على حبل ..

اتسعت عيناه البيضاوان فى وجهه الأسود ، وراحتا تدوران يمينًا ويسارًا...

سألته عن طريق المترجم عما إذا كانت هناك مشاكل هنا فقال بحماس :

- « لا توجد مشاكل .. أحسن دجاج فى (أنجاوانديرى) .. »

سألته عما إذا كان الدجاج قد بدأ يتهاوى أو يتوقف عن الطعام ..

- « لا توجد مشاكل .. أحسن دجاج فى (أنجاوانديرى) .. »

سألته عما إذا كان أطفاله مرضى .. أو قابل مشاكل فى المزرعة التى جلب منها الدجاج ..

- « لا توجد مشاكل .. أحسن دجاج فى (أنجاوانديرى) .. »

من الواضح أنه لن يتكلم .. حتى إذا كان الدجاج يصرخ ويبصق دمًا وتنبت له أنياب ثم يطير إلى القمر .. نحن بالنسبة له نفسد (البيزنس) ... الكلام عن أمراض الدجاج لا يفيد العمل ...

واصلنا البحث ...

كان هناك بائع دجاج ملتح له أسنان ذهبية عديدة .. يعلق مجموعة من الدجاج الذى قطعت رأسه تماماً .. وكانت هناك عبارات عربية عديدة على المتجر فسألت (بودرجا) عنه .. قال لى إن هذا يبيع الدجاج المذبوح كما يأكله المسلمون ..

وقفت عند الرجل قليلاً .. يعاملنا بالطريقة ذاتها التى عاملنا بها رفاقه .. إنه يتوقع كارثة ما .. تأملت الأقفاص كريهة الرائحة .. متى يتعلم الدجاج استعمال الحمّام ؟.. لست خبيرًا بالدجاج لكن هذه الطيور ليست على ما يرام . وإلا فلماذا تجلس هذه الدجاجة ساكنة ولماذا لا تلتهم الحب ولا تتزحزح قيد أنملة عندما مددت يدى أحاول أن أحركها .. ؟.. دجاجة أخرى تقف فى ركن القفص وتنظر ساهمة إلى الخارج عاجزة عن مشاركة الأخريات حماسهن للحياة .. لقد وصلت إلى الفلسفة على ما يبدو أو هى أول دجاجة تصاب باكتئاب فى التاريخ ..

كان لابد أن نتعامل بحذر .. نحن لا نملك صفة ضبطية أو رسمية ما دمنا لم نبلغ وزارة الصحة هنا بشىء .. لذا كان الحل الصائب الذى وجدته هو أن أبتاع الدجاجتين ..

كان الرجل مندهشًا .. كل هؤلاء الرجال من أجل شراء دجاجتين مريضتين ؟.. هؤلاء الغربيون مخابيل فعلاً ... لكن ما دام خبالنا يجلب مالاً فلا مشكلة هنالك ..

فيما بعد سرنى أن طابع هذا المتجر كان مختلفًا عن باقى المتاجر .. لقد لفت هذا نظرى ، وفيما بعد كان من السهل أن أعرف أن هذا هو نفس البائع الذى ابتاع منه صديقنا التونسى دجاجته ... كانت ضربة موفقة ..

وهكذا عدنا إلى (سافارى) حاملين غنائمنا ...

* * *

عندما جاء المساء توفى أحد مرضانا ووصل مريضان آخران ... لقد حان الوقت لإبلاغ وزارة الصحة بمخاوفنا ..

أراد (بارتلييه) أن ننتظر قليلاً حتى يمتلك معلومات محددة واضحة ، لكنى استشطت غضبًا .. قلت له بلهجة قاسية :

ـ « (موريس) .. أنت تريد الحفاظ على صورتك حتى لو كان ثمن هذا التضحية بساعات ثمينة .. فى رأيى أن الأقرب للصواب أن نجازف بالخطأ ونبدو حمقى .. لن نخسر الكثير فنحن حمقى فعلاً ، بينما لو لم نكن كذلك فنحن نتحدث عن حياة العشرات وربما المئات .. »

قال (شيلبى) محاولاً ألا يستفزنى أكثر :

ـ « د. (بارتلييه) يحاول أن يكون دقيقًا .. هكذا شأن العالم .. لا يجب أن نستسلم للذعر لمجرد أن هناك دجاجتين مريضتين .. »

قلت لهما وأنا أغادر الغرفة :

ـ « أريد أن تنقل هذه العينات إلى معهد (باستير) بأسرع وقت ممكن .. يجب أن نتحرك .. »

وقبل أن أخرج قلت فى عصبية :

ـ « يجب أن تعرف وزارة الصحة كل شىء .. فلعلنا مقبلون على إعدام كل الدجاج فى (أنجاوانديرى) وربما البلاد كلها !! »

لكن (بارتلييه) لم يفعل شيئًا بصدد الموضوع إلى أن تلقى تقريرًا واضحًا من خبراء الفيروسات يقول إن الفيروس الذى تم فصله من الدجاج المريض وعينات المرضى هو من طراز H1N1 ..

* * *

علاء عبد العظيم

يعتبر الطبيب المصرى الشاب (علاء عبد العظيم) من الشخصيات المثيرة للجدل هنا ، فالمدير يحبه .. كثيرون يحبونه .. لكنهم يجمعون على أنه مندفع نوعًا ومثير للمتاعب أو المتاعب هى التى تجده .. ومن الواضح أنه متورط فى كل حادثة مهمة وقعت لهذه الوحدة . هو متزوج من طبيبة كندية ولم ينجبا بعد ، وقد عاد مؤخرًا من جنوب أفريقيا . وأهميته فى هذه القصة نشأت من أنه أقرب صديق للطبيب التونسى (بو غطاس) بالإضافة إلى أنه الدليل الحى على أن المرض لا ينتقل بأكل الدجاج .. ويجب أن نعرف أنه من أعضاء الفريق (هـ) الذى سمعتم عنه ..

حين قابلته فى حديقة (سافارى) وجدت فيه طابعًا من الطفولة .. إنه كتلة أعصاب حية .. يفرح فيقهقه كالأطفال ويحزن فيبكى ويغضب فيضرب .. إن التعامل مع شخص مثل هذا مريح عامة لأنه مادام لم يلكمك على فمك فهو على الأرجح يحبك . عداوة (علاء عبد العظيم) ليست تجربة ممتعة .. قد قال لى مقطعًا من الشعر لشاعر فلسطينى يدعى (محمود درويش) يقول :

« أنا لا أكره الناس ولا أسطو على أحد .. ولكنى إذا ما جعت آكل لحم مغتصبى .. »

« إذن فحذار من جوعى ومن غضبى ! »

كان الشاعر يتكلم عن الفلسطينيين ، وكان يحذر الإسرائيليين ، لكن هذا المقطع ينطبق على تعاملات (علاء) مع أعدائه عمومًا .. وقصته مع (فيروجكس) خير دليل على ما أقول ..

سألته عما كان يفعله قبل انضمامه للفريق (هـ) فقال :

- « بالطبع كنت أقضى وقتى فى العناية المركزة أراقب (بسام) عبر الزجاج .. بالطبع كان الدخول إليه قد صار ممنوعًا .. لابد من وضع كمامة التنفس ثم أوشك الأمر على أن يتحول إلى التعامل مع مريض (إيبولا) .. أشد ما كان يعذبنى هو شعورى بأنه ليس فى يد أى منا عمل أى شىء .. ليس علينا إلا الانتظار .. علينا الجلوس إلى أن يقرر السيد (فيروس) أنه قد مل تسليته وأن بوسعه أن ينهى دورة حياته .. ربما يكون شرسًا أكثر من اللازم ويقضى على ضحيته ويقضى على نفسه كذلك .. لا أحد يعرف ..

كنت أتصور اللحظة القاسية التى أدخل فيها العناية لأجد الفراش فارغًا .. لابد من أن تجد الحشية مطوية وعاملة النظافة تمسح الأرض بالدلو الملىء بحمض الكاربوليك أو الجلوتارالهايد ..

كيف سأتحمل لحظة كهذه ؟.. كل الذكريات المشتركة معًا ، ولذة أن تجد من تكلمه بالعربية التى لا تمنحها إياى حتى زوجتى .. لهذا

كنت أقضى وقتًا أطول من اللازم فى العناية المركزة ويقينى أنه لو حدث (الشىء) فسوف يحدث وأنا غير موجود .. إن وجودى هو الضمان الوحيد كى لا يتسلل الموت إلى فراش الفتى ..

لا .. لحظة كهذه لن تحدث .. هى أقسى من أن تحدث ...

من الواضح طبعًا أننى صرت الملوم والمطلوب رأسه فى كل أقسام (سافارى) .. فى المختبر يبحثون عنى ، وفى قسم الجراحة يتساءلون أين ذهب هذا الوغد ، وفى قسم الطوارئ يفتشون عنى ، وفى قسم التوليد خرجوا حاملين رماحهم ليظفروا برأسى .. لكن قليلين كانوا يعرفون أين أنا أكثر الوقت ...

لم أكن أعرف أنه فى هذا الوقت تجرى ترتيبات مهمة فعلاً ..

لقد اتصل د. (بارتلييه) بوزارة الصحة الكاميرونية ، ثم بمعهد (باستير) .. إن علاقاته قوية بهذا الأخير لأنه عمل هناك فترة طويلة .. وفى الخفاء جرت إعدادات عاجلة لا تختلف فى شىء عن إعدادات الحروب ...

كان الفيروس من طراز H1N1 وهو خبر لا يعنى أى شىء بالنسبة لى .. فلو اتضح أنه H5N6 أو H8N6000 أو (عباس) فلن يحدث هذا عندى فارقًا .. على الأقل كان معنى هذا بالنسبة لى أننا لا نتكلم عن فيروس (سارز) الرهيب ..

لكن هذا الرقم دق جرسًا فى أذهان القوم ، فتذكروا أشياء مرعبة .. لابد أن شعورهم انتصبت ولابد أن جلودهم صارت كجلود الأوز ، ولابد أن العرق البارد تجمع تحت إبطهم ..

وهكذا عرفت أن الاتصالات دارت ...

لابد من تصرف سريع وحاسم وسرى .. يقول أحدهم : لا يجب أن نسبب ذعرًا لا داعى له ... فيقول آخر : بالعكس .. هذا وقت الذعر .. وكما يقول شعار أحد أفلام الرعب الشهيرة : كن خائفًا .. كن خائفًا جدًا..!

لو كانت حساباتهم دقيقة فنحن ـ ربما ـ قريبون جدًا من نهاية البشرية ...

إنها صورة جميلة .. لقد هلك ثلاثة أرباع البشر ، أما الباقون فهم أقرب إلى الوحوش الضارية التى تجتمع حول النيران ليلاً ، وتتقاتل على جذور النباتات الجافة أو تلتهم أرنبًا بريًا فى توحش .. إن نهاية العالم يمكن أن تبدأ الآن .. ليس بفعل نضوب الطاقة أو الحرب الذرية كما يحلو لكتاب الخيال العلمى أن يتصوروا ، ولكنها تبدأ من بلدة صغيرة فى شمال (الكاميرون) أو جنوب (نيجيريا) اسمها (أنجاوانديرى) ..

كنت أعرف يقينًا أن نهاية العالم ستبدأ من المكان الذى أوجد فيه ..

فى السابعة مساء ـ كالعادة ـ دوت مكبرات الصوت تطالب برأسى .. أقصد تطالب بأن أتوجه إلى مكتب المدير .. وكنت معتادًا هذا على كل حال .. سمعت عن أشباح تنهض عند منتصف الليل ، ونساء يصيبهن الشلل الهستيرى أو النوبات الصرعية فى التاسعة مساء .. لكننى لا أعرف نوع مرض السابعة مساء الذى يعانى منه د. (بارتلييه) ..

* * *

بالداخل كان هناك مجلس حرب .. بالضبط مجلس حرب ...

أولاً هناك (شيلبى) و(جيديون) و(مايرز) و(شرودنج) و(دولا) و(دو بوان) ... هذا يعنى اجتماع قمم طب المناطق الحارة وعلم الأمراض والطب الوقائى وأمراض المناعة والأمراض الباطنة دعك من أن (بارتلييه) يمثل علم الميكروبات .. و .... لا أذكر تخصص (دو بوان) لكنه يفعل شيئًا ما يستحق راتبه بالتأكيد ..

إذن هناك من الوحدة ذاتها بريطانى وأمريكى وفرنسيان (لو اعتبرنا البلجيكى فرنسيًا كما أحب أن أفكر طلبًا للتبسيط) وألمانيان .. وواحد كاميرونى ...

هناك طبيب صينى لم أره قط ، وطبيب من منظمة الصحة العالمية .. تعرفهم على الفور من ثيابهم ووجوههم .. كأن منظمة الصحة العالمية شجرة لا تثمر إلا هذا الطراز من القوم .. هناك طبيبة صينية

تشبه (ماو تسى تونج) وطبيب أوروبى يشبه زوج خالتى .. وعرفت أن هؤلاء جميعًا موجودون فى الكاميرون منذ زمن ، لكنهم لا يعملون فى الوحدة طبعًا ...

هذا هو ما أستطيع تذكره ...

دخلت المكان شاعرًا بالهيبة .. أنا الشاب صغير السن وسط هذه الوحوش الديناصورية .. فلابد أنهم طلبونى كنوع من المقبلات قبل وجبة العشاء ..

آه .!.. تذكرت .. (دو بوان) أستاذ أمراض صدرية .. واضح طبعًا من الاسم أنه بلجيكى .. وهو بالمناسبة يدخن كمحرقة القمامة .. كأن التدخين يؤذى الآخرين فقط أما هو فمحترف لا يتأثر بأمور كهذه .. لست خبيرًا فى هذه الأمور ، لكنى أعتقد أن هذه الـ (دو) تدل على أنه من أسرة عريقة ..

ـ « اجلس يا دكتور (عبد العظيم) »

جميل .. ولكن أين أجلس ؟.. لقد تحول المكتب الضيق إلى حافلة .. وهؤلاء القوم لا يتمتعون بالرشاقة .. هكذا وجدت مسند مقعد جوار (شيلبى) أرحت عليه نصف مؤخرتى ، ووجدته ينظر لى فى دهشة من هذا التطفل على هالته الجسدية .. هناك هالة سمكها خمسة سنتيمترات لابد أن تحيط بكل منا ولا يتعداها أحد ، وهى قاعدة لا يخرقها أحد إلا فى علب السردين وحافلات القاهرة .. قلت له مساء الخير وتظاهرت بمتابعة ما يدور فى المكان ..

قال (بارتلييه) وهو يشير إلىّ :

ـ « لا أعرف إن كان الجميع يعرف د. (عبد العظيم) ، لكنه قام بمهمات ناجحة كثيرة .. أضف لهذا أنه نشط وشاب وأنه عربى .. أى أنه أقربنا إلى مريضنا التونسى الشاب .. »

قال الصينى بالفرنسية كاشفًا عن أسنانه البيضاء النضيدة :

ـ « مفهوم .. مفهوم .. إنه صالح للفريق .. »

هنا قررت أن أفتح فمى فسألت بتهذيب :

ـ « أى فريق ؟ »

قال (بارتلييه) وهو يعد على أصابعه :

ـ « هكذا يكون عددنا تسعة .. عشرة لو ضممنا (بودرجا) فهو مفيد جدًا .. لاحظوا أننى لن أنضم لكم لأن لدى مسئوليات كثيرة .. »

أى فريق يا سيدى ؟

قال (آرثر شيلبى) وهو يشعل سيجارًا برغم المكان الخانق :

ـ « لكنك تتابعنا يا (موريس) .. هذا مهم .. نحتاج إلى علم الفيروسات كله من خلفنا .. »

أى فريق يا سيدى ؟

قال الطبيب الأوروبى الذى لا أعرفه موجهًا كلامه لطبيب الصحة العالمية :

ـ « سيكون عليك الجانب الإحصائى وتصميم الدراسة .. إن الفريق متكامل وأعتقد أن بوسعنا البدء .. »

أى فريق يا سيدى ؟

ـ « إذن بوسعنا الانطلاق .. هل من أسئلة ؟ »

تعالى صوتى إلى درجة تشبه الصراخ .. لو لم يسمعونى فهم صم ، ولو سمعونى فهم قليلو التهذيب ، من طراز تلك البغال المتظاهرة بالأهمية .. وقد تعلمت منذ زمن سحيق أن المتظاهر بالأهمية ليس على أى قدر من الأهمية .. على الأرجح ليس أكثر أهمية من أى إسكافى يحترم نفسه ..

ـ « أى فريق يا سيدى ؟ »

كأنما هو قد شرح لى الأمر ألف مرة من قبل لكننى أحمق ، قال (بارتلييه) فى هدوء وهو يوقع بعض الأوراق :

ـ « الفريق (هـ) طبعًا .. »

★ ★ ★

جيفرى تاونبرجر (*)

لم يكن د. (جيفرى تاونبرجر) ضمن أعضاء الفريق ، ولم أقابله فى هذه القصة لكنى أعرفه جيدًا ..

إنه عالم أمريكى فى علم الأمراض ، وقد اعتمدوا عليه إلى حد كبير فى فهم ما يحدث .. وحديثه هنا عبارة عن محاورة تمت عبر البريد الإلكترونى .. أى أننى أرسلت له أسئلتى وهو رد عليها ..

قال د. (تاونبرجر) فى رسالته الطويلة :

« لى فى وحدة (سافارى) الكاميرون أصدقاء عديدون ، لعل أقربهم لى البروفيسور (جيديون) أستاذ علم الأمراض وقد أجرينا معًا عددًا لا بأس به من الأوراق العلمية المشتركة ..

الكابوس الذى يطارد علماء الفيروسات فى العالم كله هو أن يعود وباء إنفلونزا عام 1918 الذى أطلقوا عليه اسم (الوباء الأسبانى) إلى الظهور .. لقد فتك هذا الوباء بثلاثين مليونًا من البشر ، أى أكثر من ضحايا الحرب العالمية الأولى ، وعمليًا لم ينج إنسان على ظهر الكرة الأرضية من الإصابة به سواء كانت شديدة أو خفيفة . قاتلة أو غير قاتلة ..

(*) شخصية حقيقية وكل ما يقوله دقيق طبعًا ..

« كان عملى فى المعهد العسكرى لعلم الأمراض فى (واشنطن) يقوم على فحص الأنسجة الميتة .. أنسجة الجثث .. وقد سيطرت علينا شهوة جمع الأنسجة ، وهى لا تختلف فى شىء عن شهوة جمع الطوابع أو جمع أغطية الزجاجات ؛ لذا صار لدينا فى المعهد ـ حتى اليوم ـ ثلاثة ملايين عينة ..

« كنت راغبًا فى فهم تكوين ذلك الفيروس الجامح الذى أجتاح العالم عام 1918 ؛ لذا رحنا نفتش فى أنسجة الجثث التى فى مكتبتنا .. ووجدت أنسجة جنديين أمريكيين توفيا عام 1918 بها جينات ذلك الفيروس الرهيب ..

لماذا نهتم بهذا ؟.. لأن وباء الإنفلونزا يجتاح العالم من حين لآخر ويكون قاتلاً .. لقد مررنا بفترة سلام تقترب من مائة عام ، لكن كل علماء الفيروسات يؤمنون بأننا على شفا وباء شامل قريب جدًا .. والسبب هو أن فيروسات الطيور تغير صفاتها من وقت لآخر ، وتقترب من اللحظة التى تصير فيها قادرة على مهاجمة الإنسان ..

ينتمى فيروس الإنفلونزا لإحدى ثلاث عائلات تسمى إنفلونزا A و B و C . وكأى فيروس آخر تنسخ هذه الفيروسات نفسها ، من ثم ترتكب أخطاء أثناء عملية النسخ ، وتتغير خطوة بخطوة ، وتنحرف عن شكلها الأصلى . والتغيرات الأهم تتم فى بروتينات

السطح الشائك التى تستعملها لتصيب بالعدوى الجهاز التنفسى للإنسان (بروتين يدعى اختصارًا H وبروتين يدعى N) . لهذا يحمل اسم الفيروس دائمًا حرفى N و H .

لكن النوع A من الفيروسات غريب الأطوار : فلو هاجم فيروسان مختلفان من النوع A نفس الخلية ، فإن بوسعهما خلط القطع الجينية كأنها أوراق اللعب على منضدة . إعادة التصنيف هذه قد تخلق أنواعًا فرعية من الفيروس تحتشد فيها مواد وراثية لم يعتدها أى نظام مناعى ، مع جينات ترمز لبروتينات من نوعى H و N جديدة تمامًا ، وربما بروتينات أخرى كذلك .

بهذه الطريقة يتعلم الفيروس أن يهاجم أعضاء أخرى غير الجهاز التنفسى .. يتعلم كيف يهاجم القلب والمخ والأمعاء .. وهذا يجعله مرعبًا فعلاً ..

ولكن من أين بدأ وباء 1918 ؟.. من الطيور أم من الخنازير ؟.. كل عالم فيروسات فى العالم يؤمن بأن فيروس 1918 أقرب إلى فيروس الخنازير H1N1 منه إلى فيروس الطيور H5N1 ..

لكن كان علينا أن نتأكد ... نريد مصدرًا نقيًا للفيروس ..

كنا فى العام 1997 وقد اتصلت بـ (جون هالتين) عالم الأمراض فى (سان فرانسسكو) وقلت له إننا عاجزون عن تحديد مصدر ذلك الوباء الذى اجتاح العالم كله ..

قال (جون) بطريقته العملية :

ـ « هناك مكان فى ذهنى يعج بـالجثث ، وهى جثث لم تتحلل بعد .. »

شعرت بالدهشة .. أين هذا المكان ؟.. هل فى أحلامى ؟

★ ★ ★

كانت أضواء الزحافات تعمى العيون .. لكن الجليد المتساقط جعلهم عاجزين عن فتح عيونهم أصلاً ..

إن المشى على هذا الجليد عسير حقًا .. أضف لهذا أن عضلاتك كلها متجمدة حتى توشك على أن تهشمها فى كل مرة تحرك فيها ، وبرغم معاطف الفراء السميك والقلنسوات والقفازات ، فإن البرد كان قادرًا على الوصول إلى مركز وجودك ذاته .. تذكر (هالتين) الدعابة القديمة حول الكرة التى طارت فى الهواء فتجمدت ولم تسقط على الأرض .. هذا مخالف لقانون الجاذبية ، لكن قانون الجاذبية نفسه قد تجمد !

أضواء (سانت ألمو) فى كل مكان ، وهى ظاهرة عجيبة لمن لم يرها من قبل .. إنها تلك الهالة الزرقاء حول الأنوف والغلايين المشتعلة .. ولم يكن (هالتين) يعرف أن هذه الظاهرة تحدث فى (ألاسكا).. كان يحسبها مقتصرة على القطبين فقط ..

سيارة الشرطة تقف جوار الزحافة وأضواؤها لا تكف عن الوميض .. أزرق .. أحمر .. أزرق .. أحمر ..

رجل الشرطة يقترب منه وهو ينفض الثلج عن كتفيه ويقول له :

ـ « يمكنك الحفر .. إن وضعكم قانونى تمامًا .. »

لمن لا يعرفون أن هذه قرية (بريفيج) ، نقول لهم بكل ثقة إنها قرية (بريفيج) .. تلك القرية المنكوبة التى أبيدت عن بكرة أبيها عام 1918 بوباء الإنفلونزا القاتل .. حتى صارت تذكرك بـ (سدوم وعمورية) .. الفارق هنا أن هذه القرية لم تُعرف بالشرور بشكل خاص ..

هاهنا يرقد ضحايا الإنفلونزا تحت الثلوج منذ مائة عام تقريبًا .. ومعنى هذا أن أنسجتهم سليمة ..

وعلى ضوء الكشافات الساطعة ووسط رجال الشرطة ، بدأ البلدوزر يزيح الجليد عن تلك الساحة التى يعتقد أن أهالى القرية دفنوا فيها قديمًا ....

مهمة صعبة هى .. وقد استمرت بضع ساعات ، وفى النهاية استطاعوا أن يروا عظامًا بشرية ..

ـ « أوقفوا الحفر وليستمر الرجال بالرفوش »

وراء الرجال يزيحون الثلج وهم يلهثون .. واللهاث نفسه كان فى مسحوق ثلج يتعلق بحواجبهم ولحاهم .. لم يكن البرد

مما يسمح للعواطف بأن تبرز إلى السطح ، ولهذا لم يستطع أحد فى أن يفكر فى كل هؤلاء الذين عاشوا وأحبوا وضحكوا منذ ثمانين عام تقريبًا ، ثم هلكوا جميعًا فى أسبوع واحد .. والغريب أن أحدهم لم يتصور أن عظامه ستخرج إلى الناس بعد كل هذا الزمن لتقدم جوابًا على سؤال ..

لكن (هالتين) لم يكن مسرورًا :

ـ « عظام !.. هذا لا يعد بالكثير .. النتيجة لن تختلف عن أية مقبرة فوق السطح ... »

ثم حك رأسه :

ـ « هناك طبقة جليد لا تقل عن متر .. فماذا كان دورها ؟ »

قال رئيس الشرطة وهو يصب لنفسه بعض القهوة الساخنة من ترموس، حيث وقف جوار سيارته :

ـ « لا نعرف ما حدث خلال مائة عام بالتحديد .. ربما ذاب الجليد عدة مرات .. »

وساد الصمت ..

فجأة هتف أحدهم أنه وجد شيئًا .. وجرى (هالتين) ليقترب محاذرًا أن ينزلق على الجليد فيحطم عنقه .. ووقف ينظر عبر الحفرة التى تحت مستواه بمترين ..

كانت هناك امرأة .. (بالفعل جثة امرأة بدينة نائمة على) وهو يرمق ملامحها وشعرها الأشقر المتجمد على الكتفين .. بدا له كأنما ظهرها .. امرأة كاملة المعالم فيما عدا أن يديها المعقودتين على صدرها كانتا عظامًا .. وقد ارتجف (هالتين) هى نائمة لا أكثر .. وكان وجهها جميلاً .. أضف لهذا أن بدانتها المفرطة ـ على الأرجح ـ كانت من عوامل الجمال عام 1918 . عن هذه المرأة كانت الأشعار تكتب منذ ثمانين عامًا ثم لم تعد هناك امرأة ولا أشعار ولا شعراء ..

لكن لو شغلنا جهاز التجرد العلمى ، لقلنا إن هذا هو النجاح بعينه .. سر جمالها قديمًا هو سر نفعها حديثًا ..

وهتف (هالتين) وهو يرتجف انفعالاً وحماسًا :

ـ « هذا الدهن عامل عزل ممتاز .. ولابد أن الفيروس فى رئتيها ما زال بحالة طيبة ! »

سوف يجد (تاونبرجر) كل الأنسجة التى يريدها ..

هنا قال أحد رجاله وهو يناوله شيئًا :

ـ « قد أبدو مبالغًا يا دكتور ... لكن ألا ترى معى أن وقت وضع الكمامات قد حان ؟!! »

* * *

بعد هذا جاءتنا عينات من النرويج أسوأ حالاً .. هناك قرية مرت بظروف مماثلة .. على كل حال أعتقد أننا عرفنا ما يجب أن نعرفه ..

قمنا بتحليل هذه العينات الثمينة فيما بعد باستعمال (تفاعل سلسلة البوليمريز PCR) ، وهكذا عرفنا بالتأكيد أن الوباء الذى فتك بالقرية .. بل بالأرض كلها عام 1918 كان من طراز H1N1 الأقرب إلى الخنزير ..

فيروسات الطيور – لا تقاطعنى من فضلك – لا تهوى إصابة البشر ، لكن فيروسات الخنزير تفعل .. وقد تكونت لدينا نظرية معقولة تقول إن فيروسات الطيور تصيب الخنزير .. هكذا تتطور أكثر وتكتسب قدرات أخطر .. إن الخنزير يستنشق الفيروس فى فضلات الدجاج وفى داخله يخلط صفات فيروس الدجاجة وفيروس الخنزير ، ليصنع فيروسًا جديدًا ممتازًا يصلح للإنسان .. ثم تنتقل من الخنزير إلى الإنسان ....

أين يجتمع الخنزير والدجاجة ؟.. طبعًا عند كل فلاح صينى .. كل فلاح صينى يخفى فى حظيرته مختبرًا خطيرًا للتجارب البيولوجية ، وفى هذه الحظيرة تنشأ أنواع فيروسات فريدة لم نسمع عنها من قبل ..

ولهذا لا نسمع عن أوبئة الإنفلونزا المريعة إلا من جنوب شرق آسيا حتى صار للفظة (إنفلونزا آسيوية) رنين يذكرنا بلفظة (طاعون) ....

اليوم نحن نقابل الكثير من فيروسات الدجاج القاتلة ..

ومن الواضح أن بعض هذه الفيروسات تعلم مهاجمة الإنسان مباشرة من دون مرور على الخنزير .. إن فيروس (هونج كونج) الشهير H5N1 نموذج على هذا ..

فهل فيروس (الكاميرون) العجيب هذا – الذى جاء كضربة تحت الحزام من حيث لا يتوقع أحد – يمكن أن يكون نموذجًا آخر ؟

* * *

الفريق (هـ)

لماذا الفريق (هـ) ؟..

البروفسور (موريس بارتلييه) هو الذى اختار هذا الاسم ولم يعط تفسيرًا .. بعض الأطباء افترض أن أصل التسمية نسبة إلى (هونج كونج) .. وهى البلدة التى أحدثت صداعًا لدى الأطباء لاقترانها بفيروس الدجاج H5N1 .. البعض قال إن هذه التسمية ترمز للبروتين هيماجلوتينين (H) الذى يميز هذه الفيروسات عن بعضها ..

واحد فقط ـ هو د. (علاء عبد العظيم) .. من سواه ؟ ـ قال لى إن المدير اختار أكثر الأسماء التى لا توحى بشىء لأنه يريد أن تظل المهمة غامضة ولا تصل إلى الإعلام .. قال لى إنه من السهل على المدير لو أراد اسمًا أن يختار اسم (فريق مكافحة إنفلونزا الطيور التى تنتقل للبشر) .. خذ الحروف الأولى تصنع اسمًا جميلاً كعادة هذه المشاريع .. لكن د. (عبد العظيم) رأى أن المدير اختار هذا الاسم بالذات لأنه بلا معنى على الإطلاق .. حكى لى عن (بريتون) مؤسس السريالية الذى سأله الصحفيون عن ذلك المذهب

الجديد الذى أسسه فى الأدب والفن ، ففتح القاموس الفرنسى واختار أكثر اسم لا علاقة له بالموضوع (دادا) ـ أى (حصان أطفال خشبى) ـ فقال لهم : مذهبى يدعى (الدادية Dadism) ..!

نعرف الآن أن الفريق تكون من الأساتذة (شيلبى) و(جيديون) و(مايرز) و(شرودنج) و(دوالا) و(دو بوان) والطبيب الصينى (لى ـ فوان ـ هن) والطبيبة (تشونج مى) وهما بيطريان .. طبعًا .. لابد من رأى الطب البيطرى هنا .. بالتأكيد كل هذا مع الشاب المصرى (عبد العظيم) وإشراف (بارتلييه) نفسه ..

وقد حدد د. (بارتلييه) أهداف الفريق كما يلى :

1 ـ هل هناك وباء ؟..

2 ـ ما هو مصدره ؟.. هل بدأ من الدجاج ؟.. كيف ؟.. لم تعرف (أنجاوانديرى) قط أوبئة إنفلونزا الدجاج .. هل بدأ من الخنازير ؟.. ليست الخنازير متوفرة هنا باستثناء تلك التى تمشى على قدمين وتدخن ..

3 ـ كيف يمكن السيطرة عليه ؟.. هل يجب إعدام الدواجن كلها كما فعلت الصين ؟

4 ـ كل هذه الأوبئة التى تصيب الدجاج تبدأ من طيور الماء المهاجرة ، فهل هنا طيور مهاجرة ؟..

وبينما يصاب البشر بالعدوى من استنشاق الفيروس ، فإن طيور الماء تصاب عن طريق البراز ـ الفم . إنها تسكب كميات هائلة من الفيروس فى برازها ، ومما يثير العجب أن الفيروس يمر من طير لآخر دون أن يسبب المرض . تأتى المشكلة حين يصل الفيروس إلى الطيور المدجنة مثل الدجاج والديك الرومى .. طيور لم يتكيف عليها .. هنا ينتزع الفرامل التى توقف تطوره . وتصيب الفيروسات عائلها الجديد بالمرض فتستجيب الأنظمة المناعية .. من ثم يتحول الفيروس لتفادى النظام المناعى . ربما يقتل عائله كذلك .

5 ـ ما هى إمكانيات العثور على فيروس مماثل ومسالم يصلح لصنع لقاح منه ؟

هى أسئلة صعبة كما ترى .. وعلى هذا الفريق أن يجد حلاً لها ..

كان الأمر مرهقًا يقتضى بحثًا فى كل مكان .. فى الأسواق .. فى مزارع الدجاج .. فحصًا مطولاً للمرضى .. تواريخ مطولة مرهقة ...

كانت أصابع الاتهام تتجه إلى تلك المزرعة التى جاءت منها أول دجاجات قابلناها ، وهى بالصدفة تقع جوار وحدتنا .. لقد هلكت أعداد كبيرة من الدجاج هناك .. أغلب العاملين من البشر مرضوا وهم الآن موزعون بين (سافارى) ومستشفيات وزارة الصحة ..

وقد صدرت أوامر حكومية بإعدام الدجاج فى تلك المزرعة ودائرة تقدر بكيلومتر من حولها ، طبعًا مع حرق الجثث ودفن الرماد عميقًا .. لكن أحدًا لا يجرؤ على توجيه ضربة قوية للاقتصاد بإعدام كل الدجاج فى البلاد .. إن الصين تلقت هذه الضربة وابتلعتها بصعوبة .. لكن هل تستطيع (الكاميرون) ذلك ؟

لم أعرف أن العلاقات كانت سيئة بين أعضاء الفريق إلا بعد مزيد من التحقيقات ..

قصة (علاء) مع الدجاجة .. شركة (فيروجيكس) ... كل هذا يجب أن نعرفه ..

* * *

علاء عبد العظيم

لا يعتنق د. (عبد العظيم) نظرية المؤامرة التى يؤمن بها العرب كثيرًا .. وفى هذا يقول لى :

ـ « نظرية المؤامرة لذيذة وتروق للجميع لأنها تعطيك على الفور انطباعًا بأنك أذكى من الآخرين ، وأنك تعرف خفايا الأمور .. تهطل الأمطار فتقول إنها مؤامرة أمريكية من أجل .. إلخ ... فيقول لك أحدهم إن الأمطار تهطل لأن رطوبة الجو ارتفعت ولا دخل لهذا بالمؤامرات ، فتنظر له ساخرًا : هىء هىء .. ساذج .. مسكين !.. »

قال د. (علاء) :

ـ « غير أننى بدأت أتبنى هذه النظرية مع الوقت لأننى لا أجد لما يحدث تفسيرًا آخر .. الفيروس يظهر بلا إنذار وبلا سوابق فى هذا البلد .. هذا الفيروس دخل البلاد ولم يتطور مع الوقت مثل فيروس 1918 أو فيروس هونج كونج ..

كان كل يوم يقربنى من هذه العقيدة ..

كان العمل مع هذا الفريق ممتعًا وقد تعلمت منهم الكثير .. لكنى كنت أعرف أنهم علماء لا أكثر ولا أقل ، فى حين يقول المثل إنك تحتاج إلى لص كى تقبض على لص .. الجزء المشاغب فى داخلى هو ما ينقصهم .. وهو ما سوف أستغله فى هذه العملية ..

كان (بسام) يتحسن فى هذه الآونة ..

لقد أفاق وتم انتزاع جهاز التنفس الصناعى عنه ، ثم بدأ يأكل .. وقد حمدت الله على هذا كثيرًا .. إن معدلات الوفيات ما زالت عالية من هذا المرض الجديد ، ولا تتناسب مع عدد المرضى القليل نسبيًا .. إن المرضى لم يتجاوزوا الأربعين هذا صحيح .. لكن وفاة عشرة منهم تعنى أن نسبة الوفيات 25٪ وهى نسبة مخيفة ..

نعم نجا (بسام) .. فلن أجد كلمات كافية أشكر بها الله على فضله ..

وقد جلست جوار (بسام) فى غرفته التى نقل إليها ، وهى غرفة مشمسة جميلة تختلف كلية عن العناية المركزة الكئيبة خافتة الإضاءة .. وقلت له إنه محظوظ .. لا أمانع أبدًا فى أن أمرض عدة أيام مقابل أن أنال إجازة مجانية مثله ..

قال باسمًا بصوته الواهن :

ـ « المحظوظ الحقيقى هو الذى يلتهم الدجاجة كلها بينما أمرض أنا .. »

ـ « نحن نعرف الآن أن التهامها ليس سبب المشكلة .. أعتقد أنك استنشقت من أنفاسها الكثير .. »

ـ « البائع لم يمرض كما قلت أنت .. »

قلت وأنا أثنى قدمى على المقعد تحتى :

ـ « أنت تعرف أنه لا يوجد شىء واضح ولا سهل فى علم المناعة .. لماذا تسقط أنت مريضًا بينما لا أصاب أنا بمجرد زكام .. »

قال متطيرًا :

ـ « والعياذ بالله .. لا تحسد نفسك كثيرًا .. »

ـ « لا يوجد ما يضمن لى ألا أسقط ميتًا غدًا .. لكنى أتحدث عن قوانين المناعة المبهمة .. هل تعرف تجربة (كوخ) مع الكوليرا ؟.. لقد أعلن (كوخ) أنه وجد البكتريا الواوية التى تسبب المرض ، لكن أحد علماء عصره ضيقى الأفق قال إن هذا هراء وتحداه .. ثم تناول أنبوب اختبار مليئًا بالبكتريا .. كمية بكتريا تكفى لإبادة قارتين .. وشربه كله فلم يصب حتى بعسر هضم !.. أليس هذا لغزًا ؟.. طبعًا كان موقف (كوخ) العظيم فى غاية السوء .. »

ثم نظرت لساعتى وأعلنت أننى راغب فى الانصراف ليظفر ببعض الراحة ..

قال لى (بسام) وهو يفتح الجريدة ليقرأها :

ـ « (علاء) .. هناك فى ثلاجة مطبخ (سافارى) كيس أزرق بلاستيكى صغير .. على الرف الثالث من اليمين .. هذا الكيس فيه

الدجاجة الأخرى التى ابتعتها .. أرجو أن تأخذها وتتخلص منها بعناية .. لا أريد أن يلتهمها هؤلاء الحمقى .. ما لم ترغب أنت طبعًا فى التهامها بما أنك منيع »

نظرت له فى دهشة ..

ـ « إذن هناك بالفعل دجاجة أخرى ؟.. نسيت هذا أو لم أعرفه قط .. سأفعل كما تقول »

* * *

فى غرفتى بالدار جلست وتأكدت من أن الإضاءة جيدة ، ثم وضعت كمامة استعرتها من قسم الجراحة وارتديت قفازين ، وأحضرت عدسة ورحت أتأمل جسد الدجاجة الذى ذاب عنه الثلج بعناية .. سوف أسلمها لـ (جيديون) بعد هذا لكن يجب أن أتفحصها وحدى من دون من يصرخ فى أذنى ، ويدلى بآرائه فى الحياة ..

دجاجة .. تأمل بطنها واقلب جناحيها .. دجاجة .. تأمل فخذيها ثم تأمل العنق .. دجاجة ..

ماذا تتوقع يا أحمق ؟ أن تجد لافتة كتب عليها : هنا فيروس فخذ الحذر ؟

لكن .. لحظة ...

هذه كدمة أعلى الفخذ .. لا شك فى هذا ... ثم تلك الثقب الصغير .. صغير لكنه أحدث الكثير من الأذى من حوله ..

وتجمدت ونظرت إلى ضوء المصباح حيث لا أرى شيئًا .. لكن الأفكار تتزاحم فى ذهنى وأراها أمامى ..

لم أكن مخطئًا ...

هذا الدجاج تم حقنه .. بأى شىء ؟ ..

بالفيروس طبعًا .. لا شك فى هذا ...

والغرض أن ينتشر فى المزرعة كلها فتكون نواة للوباء .. وكان من حظ (بسام) العاثر أن اختار البائع الذى يتعاطى مع دجاج هذه المزرعة بالذات ...

* * *

قال (آرثر شيلبى) وهو يتفحص الدجاجة :

ـ « لا أعرف معنى لهذا الكشف ، لكن أرى أن يبقى سرًا بيننا منعًا للبلبلة .. »

كان جالسًا مع الصينى (لى ـ فوان ـ هن) والطبيبة (تشونج مى) وكان (دو بوان) واقفًا أمام لوح الكتابة فى غرفة العمليات للفريق (هـ) يخط شيئًا ..

قلت له فى عصبية :

ـ « لابد من أن يرى د. (جيديون) هذه الدجاجة .. لو كان ظنى صائبًا فإنه سيجد علامات الحقن بالفيروس .. إننا أعدمنا الدجاج هناك كله وأحرقنا جثثه .. معنى هذا أن هذه آخر دجاجة تحمل دليلاً .. »

بصوته الشبيه بدقات الأجراس قال الصينى :

ـ « أنا أتفق مع د. (شيلبى) فى أن هذا الأمر سيحدث بلبلة لا شك فيها .. كثير من الاتهامات ستتطاير .. ولسوف يصيب الطين الجميع .. رأيى الخاص هو أن نتحرى أولاً فى المزرعة .. لقد فتشنا هناك كثيرًا لكن ربما عرفنا تفاصيل أكثر .. مثلاً هل تلقى الدجاج أية حقن علاجية مؤخرًا ؟ »

وقال (دو بوان) وهو يمسح أنامله من أثر الطبشور :

ـ « إن الدجاج يحقن أحيانًا .. لا يعنى هذا شيئًا .. أنت تتكلم عن حرب بيولوجية .. »

قلت بعناد عُرفت به :

ـ « فعلاً .. هذا ما أتكلم عنه .. »

ـ « ومن الذى يشن حربًا بيولوجية على الكاميرون ؟ »

ـ « ليتك تسأله ! »

قال (شيلبى) وهو يمسك بالدجاجة التى أعدت تجميدها ، ويضعها فى كيس بلاستيكى :

ـ « اسمع يا (علاء) .. أعرف أن نواياك حسنة وأنك متحمس كالعادة . لكن أريد أن تثق بى .. ستكون هذه الدجاجة معنا وأريد أن تذهب إلى تلك المزرعة ـ وهى ليست بعيدة على كل حال ـ وتتحرى ما سألناك عنه .. »

هززت رأسى وقررت أن أكون مطيعًا ...

* * *

كان (ميشيل ماجومبا) صاحب المزرعة المنكوبة رجلاً فى الخمسين من عمره ، أسود بشدة ويلبس تلك البذلة الصيفية الزرقاء قصيرة الأكمام التى يحبها الوطنيون هنا .. كنت قد أحضرت (بودرجا) معى للترجمة .. والسبب الأهم هو أننى أحب (بودرجا) فعلاً ، وأعتبره صديقًا مخلصًا .. طيلة حياتى كنت عاجزًا عن التعامل بتعال مع من هم أقل منى مالاً أو مركزًا ..

على كل حال لم أكن فى حاجة إلى (بودرجا) .. لأن الرجل كان يجيد الفرنسية فعلاً .. وجدته جالسًا فوق أطلال مزرعته بالمعنى

الحرفى للكلمة .. مكتب صغير ضيق وأثاث رخيص .. وفى الخارج كانت الأقفاص كلها مفتوحة وخالية .. ورائحة الأرض تفوح بمحلول (الجلوتارالهايد) ... جو عام من النظافة والتعقيم والخراب .. جواره كان يقف رجل أصلع غليظ الشفتين من الطراز الذى يقضى حياته بالفانلة الداخلية ، ويبدو أنه كان سكرتيره قبل الإفلاس ...

قال لى (ميشيل) فى عصبية :

ـ « ماذا تريد ثانية ؟.. لقد أحرقتم الدجاج كله .. هل تريدون حرقى أيضًا ؟ »

ثم لوح بيديه فى الهواء ، وهتف بطريقة شكسبيرية :

ـ « صدقنى هذا لن يحدث فارقًا .. أنا اليوم رجل معدم وعلىَّ البدء من جديد .. »

فى الخارج كانت سيارتا (بيك آب) خاليتين تمامًا .. كل شىء يوحى بنشاط عارم فيما سبق وقد انتهى .. كانت هناك نافورة مال تتدفق فى دار الرجل ثم جاء الأوغاد من (سافارى) وجففوها ..

كان علىَّ أن أمضى بعض الوقت فى تهدئته قبل استجوابه .. إن وزارة الصحة ستعوضه بالتأكيد ..

قال فى غيظ :

ـ « هذا يحدث فى بلادكم الثرية .. ألست فرنسيًا ؟.. لكنه لن يحدث هنا أبدًا ..! »

ابتلعت مجاملته فى صبر .. أنا فرنسى برغم ملامحى المصرية التى لا يخطئ فيها كفيفان .. ولم أرد إخباره بأننا فقراء مثلهم .. لذا سألته بعد ما هدأ قليلاً :

ـ « هل تم إعطاء أية حقن للدجاج فى الفترة الأخيرة ؟ »

فكر قليلاً ، ثم قال :

ـ « كان هناك ذلك المقوى .. نعم .. نعم .. قمنا بحقن الدجاج منذ أسابيع .. »

أسقط فى يدى .. ليست المرة الأولى التى أدرك فيها أننى أحمق . لكنى أفضل ألا يعرف العالم كله بحمقى ..

ـ « من قام بهذا ؟ »

فكر من جديد ، ثم قال :

ـ « إنه ذلك البيطرى الصينى .. ذلك الرجل .. أنت تعرفه .. لقد جاء مع رجلين وبدأ التطعيم .. كنت متضايقًا من نقص وزن الدجاج فأرسلوا لى هذا الرجل .. »

ـ « صينى ؟.. عمن تتكلم ؟ »

قال بطريقته العصبية الملول :

ـ « كل الصينيين يتشابهون ، وكل أسمائهم لا يمكن حفظها .. إنه من فريقكم الذى جاء مزرعتى أكثر من مرة .. لابد أنك تذكره .. لقد كنت تتبادل الكلام معه !!! »

★ ★ ★

ماكس فرايمان

بالفعل تجد على وجه (ماكس فرايمان) كل سمات المدير التنفيذى لواحدة من أكبر شركات الأدوية فى العالم ..

التصميم .. الذكاء .. القسوة .. الظرف المغلف بالصرامة والصرامة المغلفة بالظرف .. هذا رجل لا يؤكل بسهولة .. لا أعرف كيف يبدو رئيس مجلس إدارتهم لكنى لا أحب أن أختلف معه ..

شركة (فيروجيكس) كما تعلمون من أهم شركات صنع اللقاحات فى ألمانيا والعالم ..؟ الاسم نفسه يوحى بهذا لأنه خليط من كلمتى (فيروس) و (هندسة) .. ومن الواضح أنهم يتحدثون عن الهندسة الوراثية ...

لما كان قد ترك (الكاميرون) اتصلت به فى مكتبه فى (ميونيخ) ، وقد أرسلت له فاكسًا يتضمن أسئلتى وأجاب هو عنها بالتفصيل ...

قال (فرايمان) :

ـ « لم آت إلى الكاميرون لهذا الغرض .. لقد كنت هناك بالصدفة واتصل بى البروفسور (هانز شرودنج) لألحق بهم فى وحدة (سافارى) .. أنت تعرف أن (شرودنج) عالم مناعة وألمانى ، وقد

جاء إلى الوحدة بعد إصابة سلفه ومواطنه (شيفرن) بداء آلزايمر ، وقد عمل لفترة طويلة معنا كما عمل فى شركة (شرينج) .. من الطبيعى أن تنشأ بيننا صداقة وطيدة ..

حينما لحقت بهم فى الوحدة عرفت أنهم يواجهون مشكلة عويصة .. إن فيروسًا من طراز H1N1 يجتاح البلاد أو بدأ يفعل ذلك .. وقد شكل رئيس وحدة (سافارى) كيانًا يدعى الفريق (هـ) مهمته السيطرة على هذا الوباء .. طبعًا لا يستقيم الأمر من دون تعاون منظمة الصحة العالمية ووزارة الصحة الكاميرونية ، لأن (سافارى) تملك العقول ، لكنها لا تملك أى شىء آخر ..

صارحت بهذا صديقى العزيز (شرودنج) ، فقال لى وهو يقدم لى سيجارًا :

ـ « أكلمك كصديق .. هذا حديث حميم بيننا لا يفرض عليك التزامات ما .. هل لدى شركتكم ما تقدمه لهذا البلد ؟.. لو عرفت ما لديكم لاستطعت ترتيب الأمر مع وزارة الصحة .. »

كانت لقاحات الإنفلونزا مشكلة طيلة تاريخها .. هذا أمر معروف لأن الفيروس يغير خواصه بسرعة جهنمية .. مبدأ اللقاح هو أن تحقن الجسم ببروتين معين .. هكذا يكون الجسم أجسامًا مضادة ضده تحمى المرء من هجوم تال ..

فيروس الإنفلونزا يغير تركيبه من آن لآخر .. بحيث تصير الأجسام المضادة فى جسمك عديمة النفع .. ويستطيع غزوك بلا مشاكل ..

هذه هى لعبة البيولوجيا الجزيئية التى تبحث عن أكثر الأجزاء ثباتًا فى فيروس التهاب الكبد (ج) أو الإيدز أو الإنفلونزا لتصنع منه مادة اللقاح .. أنت تستطيع أن تطيل لحيتك وتقص شاربك وتغير ثيابك وتضع عدسات لاصقة على قرنيتيك .. كل هذا ممكن لكنك مثلاً لا تستطيع تغيير شكل صوان أذنيك .. هذا هو الجزء الثابت الذى يحارب علماء البيولوجيا الجزيئية ليلاً نهارًا كى يجدوه ..

أين صوان أذنى فيروس الإنفلونزا ؟

* * *

وقفت فى ذلك الاجتماع الذى ضم أعضاء الفريق (هـ).. لم أكن متأهبًا بالطبع للعرض ، لكنى أعددت على عجل بعض الشرائح طلبتها من مكتبنا الدعائى عن طريق الإنترنت ، مع الحصول على الأرقام الضرورية والرسوم ..

كان (مايرز) يتولى الترجمة من الألمانية إلى الفرنسية .. إن لعبة اللغات معقدة جدًا فى برج (بابل) هذا .. لكن الفرنسية هى (اللينجوا فرانكا) هنا على كل حال ...

قلت لهم وأنا أنظر على الشاشة التى ظهر عليها العرض التقديمى :

ـ « مشكلة فيروسات الدجاج هى أنها تقتل الدجاج .. وهذا يجعل استخدام البيض لإنتاج اللقاح عسيرًا .. لكن شركتنا توصلت إلى زرع الفيروس فى خلايا يرقات الذباب .. قمنا بعمل هندسة وراثية لهذا الفيروس الجديد كى ينتج لنا البروتين H1N1 .. بهذا نحصل على كميات كافية من هذا البروتين تكفى لتطعيم الدجاج وتطعيم البشر .. »

سألنى الأمريكى (آرثر شيلبى) وهو يشعل سيجارًا غليظًا كاد يقتلنا جميعًا :

ـ « متى يمكنكم إنتاج هذا اللقاح لو حصلتم على عينة فيروس ؟ »

قلت فى ثقة :

ـ « نحتاج إلى شهرين لن يزيدا يومًا .. »

سألنى (بارتلييه) وقد بدا عليه القلق :

ـ « واختبارات الأمان .. هل جربتموه على البشر ؟ »

ـ « لم نفعل .. نحن نتحدث عن شىء سيتم إنتاجه ولم يجرب بعد .. لكننا نتوقع أن يتم هذا خلال شهرين آخرين .. وخلال شهر آخر يكون المنتج فى الأسواق .. »

صاح الطبيب الصينى الذى نسيت اسمه :

ـ « كثير جدًا .. أنت تتحدث عن خمسة أو ستة أشهر .. هل تتوقع أن تكون أسرع من الوباء ؟ »

ونقل لى (شرودنج) هذه الكلمات ...

كنت أتوقع هذا الاعتراض وأعرف إجابته :

ـ « نحن نتحدث عن فيروس متغير .. أى أن كل لقاح له ظروفه الخاصة .. أعطنى الفيروس أعطك لقاحًا له ... فكر فى الأمر على أننى ترزى أخيط لكل زبون حاجاته ، لكنى لا أتعامل مع الثياب الجاهزة .. إذا كنت تتحدث عن الجدرى أو الحمى الصفراء أو الحصبة يمكنك أن تذهب لمتجر الثياب الجاهزة ، أما نحن فنتعامل مع إعادة التصنيف .. أخطر أسلحة الفيروسات »

ساد صمت كئيب .. كان الكل يفكر فى هذا الذى قلته .. بالطبع أعتقد أن أكثرهم لا يعرف شيئًا عن طبيعة ما نقوم به باستثناء (بارتلييه) و(شرودنج) لأن البيولوجيا الجزيئية علم شديد التعقيد ..

قال الصينى فى عدوانية مهذبة برغم هذا :

ـ « إذن أنتم وجدتم الجزء الثابت فى الفيروس ! »

قلت بنفس العدوانية :

ـ « لا .. قلت إن هذا اللقاح سيصلح لهذا الفيروس فقط .. لكنه عديم الجدوى ضد أى فيروس إنفلونزا فى أى مكان فى العالم .. »

ـ « واضح أنه عديم الجدوى هنا أيضًا ! »

هنا تدخل الشاب الملتحى الذى عرفت أنه عربى ، وقال :

ـ « لو سمحتم لى .. »

قال (بارتلييه) فى لهجة مهذبة لكنها تحذيرية :

ـ « فيما بعد يا (علاء) .. »

طبعًا خمنت أنه قال هذا من إيماءاته لأنه قالها بالفرنسية وما كان (شرودنج) ليترجم كل شىء ..

قلت للفتى الذى شعرت بأنه متحفز ضدى لسبب لا أفهمه :

ـ « تفضل .. »

قال الفتى فى حماس بينما ينقل الكلام لى بالألمانية :

ـ « ألا ترى أنه من الغريب أن توجد هنا فى هذا الوقت بالذات .. وأن يكون عندك الحل الآن بالذات .. ثم أنت لم تقل كم يكلف هذا اللقاح .. هل ستلقحون جميع البشر أم تلقحون جميع الدجاج أم تلقحون الاثنين ؟ »

إلام يلمح هذا المخبول ؟

قلت له ببرود وأنا أغلق حاسبى الشخصى :

ـ « دكتور . أنا قلت ما عندى والذى دعانى صديقى العزيز د.(شرودنج) لقوله .. بعد هذا لا أعرف ما ترمى إليه .. أما إن كنت تريد معرفة تكلفة هذا اللقاح فاعلم أنه يكلف كثيرًا جدًا ... لا أعرف الرقم بدقة لكنه باهظ الثمن .. »

هنا شاعت ضحكة انتصار كريهة على وجهه ، وقال :

ـ « توقعت أن تقول هذا .. »

قال (دو بوان) لائمًا :

ـ « د. (عبد العظيم) .. لا أتوقع أن توجه إهانات لشركة محترمة مثل (فيروجكس) هنا أمامنا .. وإننى لأنسحب من هذه الجلسة إلى أن أسمع اعتذارًا منك »

انصرف وانصرف الجميع وبقيت مع (شرودنج) و(بارتلبيه) ... دعانا (بارتلبيه) إلى الغداء فى مكتبه ، ثم قال لى فى رفق :

ـ « لا تتضايق من طبيبنا المصرى الشاب .. أنت تعرف اندفاع الشباب .. »

قلت فى برود :

ـ « أنا لم ألحظ ما قال أصلاً ... واضح أنه يتظاهر بالذكاء .. »

قال (بارتلبيه) وهو يمسك بسماعة الهاتف :

ـ « إنه لا يتظاهر .. إنه ذكى فعلاً ... بالمناسبة ماذا أطلب لك للغداء ؟ »

ـ « أى شىء ما عدا الدجاج من فضلك !! »

★ ★ ★

علاء عبد العظيم

فيما بعد ونحن نلتهم الطعام الردىء فى الكافتيريا قال د. (علاء) :

ـ « منذ دهر تعلمت الشك فى الشركات العملاقة العابرة للقارات تلك .. هناك شركات يفوق دخلها دخل دول أوروبا الغربية مجتمعة .. تصور هذا !.. ليس أوروبا الشرقية بل الغربية .. شركة واحدة تملك هذا كله .. أى أنها دول كاملة أو أكبر .. وإذا كانت الدول تغزو دولاً أخرى طلبًا لمزايا اقتصادية ، فلماذا لا تفعل هذه الشركات ما هو أكثر ؟ »

« لهذا شعرت بالارتياب فى هذا كله ... »

« هناك من حقن الدجاج .. فيروس لا أصل له فى هذه البلاد يظهر فجأة .. شركة متحمسة تقدم اللقاح بسعر باهظ .. وهى تظهر على مسرح الأحداث أسرع من البرق . »

قلت للفتى المتحمس وأنا أكتم ضحكتى :

ـ « سمعت كل أنواع نظرية المؤامرة لكن لم أسمع عن شركة أدوية تشعل حربًا بيولوجية كى تبيع لقاحاتها .. أنت عبقرى حقًا .. الأمور لا تؤخذ بهذا المنطق البوليسى .. »

قال لى (علاء) دون أن يضحك :

ـ « لقد رأيت ما يشبه هذا فى مهنتى .. على كل حال لا تنس أن تجارة الدواء تفوق تجارة السلاح .. من الذى يشعل الحروب فى كل بقاع العالم ؟.. حروب يحترق فيها الأطفال وتموت النساء ويباد الزرع والضرع .. أليسوا هم تجار السلاح ؟.. لماذا لا يشعل تجار الدواء حروبهم الخاصة إذن ؟ »

قلت له فى بساطة :

ـ « أنا ميال إلى أن هذا حدث بالصدفة .. الموقف لا غبار عليه .. لقد طُلب من الرجل أن يعرض إمكانيات شركته فعرضها .. »

قال (علاء) متجاهلاً ما قلت :

« لقد رحت أفكر فى هذا الذى حدث ، ثم قررت أن أعرف أكثر .. »

توجهت إلى (آرثر شيلبى) وقلت له إننى أريد دجاجتى .. يبدو هذا مضحكًا لكنى بالفعل كنت أريد الدجاجة التى هى الدليل الوحيد على أن حقنًا قد تم .. سأحتفظ بها بمعرفتى إلى أن تقوم وزارة الصحة بتشريحها وتحديد الفيروس الموجود بها .. لو اتضح أن هناك من حقنها فالشركة وذلك التنفيذى النصاب هما المتهم رقم واحد ..

أنا أحب (شيلبى) .. فعلاً أحبه .. لكنى أحيانًا لا أطيق ثقته الزائدة بالنفس وشعوره بأن الباقين حمقى ..

قال لى وقد أدرك أننى مصرٌ كالكابوس :

ـ « ليكن .. إننى أحتفظ بها فى المختبر .. ثلاجة المختبر كى تحتفظ بفيروساتها سليمة .. »

وهكذا اتجهنا إلى هناك ..

كانت د. (هيلجا) الشيطانية جالسة تنظر عبر المجهر ، وقد رأتنى ورأت (شيلبى) .. هكذا قررت ألا تنسفنى .. أشرق وجهها واحمر خداها واكتسبت أنوثة مريعة .. بشعة أنت يا ملاكى كالشيطان ذاته حينما تظهرين الرقة .. نسيت أن أقول لكم إنها ترى (آرثر شيلبى) وسيمًا إلى حد لا يوصف .. لا أعترض على هذا كثيرًا ، لكنى أعترض على كونها تعتبره الرجل الوحيد الجدير بها فى هذا العالم الذى خلا من الفرسان .. فى رأيى أنه ما من أحد جدير بها على الإطلاق ، وهذا من حسن حظ الرجال عامة ..

قالت له وهى تنفث دخان سيجارتها :

ـ « مورجن ماين فرويند .. »

فقال لها :

ـ « مورننج ماى فريند »

وبعد هذا تجد الأمريكيين والبريطانيين يعتبرون الألمانية لغة أجنبية صعبة ، ويرسبون فى امتحاناتها !.. ذات مرة ترجمت مقالاً كاملاً بالألمانية معتمدًا على قربها من الإنجليزية وعلى شىء يطلق عليه المصريون اسم (الفهلوة) ..

اتجه (شيلبى) بثقة إلى الثلاجة فلم تعترض الشمطاء ..

مد يده بنفس الثقة ثم تصلب .. هذه المرة اعتمد على عينيه ..

الثلاجة خالية .. لا شك فى هذا ...

لقد اختفت دجاجتى .....!

* * *

ويستكمل د (علاء) قصته قائلاً :

ـ « طبعًا ما سأقوله ليس للنشر لأن هذا يجعلنى عرضة للمقاضاة .. »

قلت له وأنا أقدر الأمور فى ذهنى :

ـ « سيكون هذا صعبًا .. سأحاول أن أقدم انطباعات لكن ليس على لسانك .. »

ثم أضفت باسمًا :

ـ « أنت متفائل بصدد انتشار مجلتنا .. لا أعتقد أنك واجد فى هذه الوحدة عشرة أفراد يعرفون ما هى مجلة (أدفانس) هذه ، ولا إن كانت مجلة أم حليًا للرضع .. ولو نشرت فى مقالى إنك مدير الوحدة وإنك اكتشفت علاج السرطان لما لاحظ أحد .. »

قال وقد بدا عليه بعض الاطمئنان :

ـ « ليكن .. أقول إن اختفاء الدجاجة جعلنى أرتاب فى أعضاء الفريق (هـ) أنفسهم .. من الذين عرفوا بوجود هذا الدليل ؟.. لو كانت هذه مسرحية لأشرت بإصبعى السبابة إليهم وقلت بلهجة درامية : هناك خائن بيننا .. »

وفرد أصابعه ليعد عليها :

ـ « أولاً : هناك (شيلبى) .. ثانيًا : هناك الصينيان .. ثالثًا : هناك (دو بوان) .. لا أحد يعرف بأمر الدجاجة إلا هؤلاء .. » ـ ثم ضحك وقال ـ « اسمح لى أن أطلق على الدجاجة اسم (الدليل) لأن الكلام عن الدجاجة يبدو مضحكًا إن لم يكن سخيفًا.. إذن هناك خمسة من فريق (هـ) يعرفون أن هناك دليلاً .. أحد هؤلاء متواطئ مع الشركة .. لكن من هو ؟.. من هو هذا العميل القذر إذا سمحت لى ؟.

لو سمحت لى باستثناء نفسى فإننى ميال إلى استثناء (شيلبى) كذلك . فالرجل قد تلقى الكثير من العروض أمامى من قبل .. إنه متبختر ثرثار وممثل كبير لكنه ليس وغدًا .. هذا يضيق نطاق البحث إلى ثلاثة .. »

هنا تضيق الدائرة نوعًا حول الصينى (لى ـ فوان ـ هن) .. تذكر كلام صاحب المزرعة عن الطبيب البيطرى الصينى الذى جاء يحقن الدجاج بالفيتامينات ، بعدها بدأ المرض .. ثم تتسع الدائرة ثانية حينما نتذكر أنه كان أول المعترضين على لقاح شركة (فيروجكس) ..

ما معنى هذا ؟.. هل كان يتصنع ما قال ؟

فقط كنت أعرف شيئًا واحدًا ..

لقد بدأت أستعيد أجواء المؤامرة ، وأشعر أن الجميع متواطئ بشكل أو بآخر .. لذا يجب أن أحتفظ بشكوكى لنفسى وأعتمد على حدسى الخاص .....

* * *

علاء عبد العظيم

قال د. (علاء) :

غادر (بسام) المستشفى ..

صحيح أنه كان منهكًا وقد فقد عشرة كيلوجرامات على الأقل من وزنه ، لكنى أعرف مقدار الحياة فى هذا الفتى من بريق عينيه .. لو انطفأ فهو مقبل على الموت .. لو تألق فهو بخير حتى إن كان جلدًا على عظم ..

أقمنا له احتفالاً صغيرًا .. هناك آخرون قد ظفروا بالشفاء وهناك حالات جديدة وهناك من انتهت آلامه للأبد .. لكن المرض ما زال نشطًا ومازال ينتشر ..

وهكذا اضطررنا إلى توسيع الدائرة قليلاً ... المزيد من الإعدام للدجاج البرىء .. والذى هو فى الحقيقة إعدام لأصحابه أيضًا ..

قال صاحب المزرعة :

ـ « هذا يحدث فى بلادكم الثرية .. ألست فرنسيًا ؟.. لكنه لن يحدث هنا أبدًا ..! »

وكان على حق طبعًا .. فيما عدا كونى فرنسيًا ..

فرغنا من اجتماعنا فى ذلك اليوم وانطلق كل منا لأداء عمله .. هناك المزيد من مزارع الدجاج التى سيتم القضاء عليها .. المزيد من المرضى الذين يتم استجوابهم بدقة .. المزيد من الحالات التى لابد من وضعها على جهاز التنفس الصناعى .. المزيد من الوفيات التى لابد من خروجها ..

كنت أراقب أعضاء الفريق (هـ) مفكرًا .. ثمة خائن بيننا .. من هو ؟.. ومتى بدأ ينفذ مخططه ؟..

قبل أن ينصرف الجميع انفردت بالطبيب الصينى .. إن اسمه كما قلت هو (لى ـ فوان ـ هن) .. طبيب بيطرى .. جاء إلى الكاميرون منذ عامين ...

سألته عن نوعية المقويات التى أعطاها للدجاج هنا ، فضاقت عيناه الضيقتان أصلاً وبرزت أسنانه ، وقال :

ـ « ماذا ؟.. مقويات ؟.. أنا ؟ »

ـ « فى مزرعة الدجاج التى بدأنا بها البحث .. »

هز رأسه فى عدم فهم .. هزه فى صدق .. وقال :

ـ « ليس هذا عملى .. ليسمح لى الطبيب المحترم فأنا طبيب مثله ولا أمر على المزارع أحقن الدجاج .. ثم ما نوع هذه الفيتامينات بالضبط ؟.. هل هى هرمونات ؟ »

قلت متأسفا :

ـ « الحقيقة أننى لا أعرف .. لكن صاحب المزرعة يؤكد أنه رآك .. و .. »

فى ضيق قال :

ـ « أعتقد أن هؤلاء القوم لا يعرفون آسيويًا من آخر .. على كل حال لا أعرف علاقة هذا بالموضوع .. »

عدت أسأله وأنا أشعر بأننى استفززته أكثر من اللازم .. أنا أعرف أن هؤلاء الصينيين صبورون جدًا لكن إذا نفد صبرهم ...... إن غضبتهم مروعة لا تبقى ولا تذر ..

ـ « ما سر عدم حماسك لشركة (فيروجكس) ؟ »

وضع عويناته الغليظة التى أخرجها من جيب بذلته البسيطة ، وقال :

ـ « سيدى الموقر .. أنا لا أثق فى الشركات عابرة القارات هذه .. أنا من الحرس القديم .. جيل الثورة الثقافية .. وقد تعلمنا ألا نثق بهؤلاء .. السيد الألمانى يتحدث عن لقاح باهظ ويتحدث عن ستة أشهر تكون الكارثة فيها قد حلت وانتهت .. (هونج كونج) حلت مشكلة مشابهة بإعدام الطيور ولم يتكلم أحد عن لقاح .. أعتقد أنه مجرد نصاب يحاول الصيد فى الماء العكر .. إن هؤلاء القوم ينظرون لنا فلا يرون بشرًا بل يرون بحرًا من الدولارات تنتظر من يجمعها .. »

صافحته .. وقد سرنى أن وجهات النظر متقاربة إلى حد ما .. صحيح أنه يتكلم من منطلق شيوعى بحت ، وصحيح أننى أتكلم من منطلق (عدم الارتياح) فحسب ، إلا أننا متفقان على خطل الرأى القائل بأن نعهد بالعمل لهذه الشركة ..

فارقته وأنا ـ لسبب ما ـ أشعر بأن هذا الرجل صادق ..

أسبابى لاتهامه لا تقنع أية محكمة .. كما أن أسبابى لتبرئته لا تقنع أية محكمة .. لكنى أعرف أنه صادق ..

صاحب المزرعة أخطأ الرجل .. لكن من هو ذلك الصينى الذى ذهب إلى المزرعة ليحقن دجاجها بالفيروسات ؟

* * *

الآن صارت دائرة اشتباهى تتركز فى (دو بوان) والمرأة الصينية ..

كنت معها فى السوق البعيد نتفقد الطيور .. طبعًا كانت دائرة الإبادة تتسع ، وقد صار الجميع متوترين .. لكن الصحافة لم تهتم بالأمر بالقدر الكافى لأن الدائرة ما زالت فى (أنجاوانديرى) .. أى أن الموضوع ما زال محدودًا .. حتى منظمة الصحة العالمية لم تكتب عنه فى منشوراتها ..

لكن الأهالى كانوا قد بدءوا يقلقون .. ليس على صحتهم بل على دواجنهم .. مصدر عيشهم ..

وقفت معها جوار قفص به مجموعة من البط الأبله الذى يرمقنا بغباء ويتصايح .. انحنت على ركبتيها وراحت تتفحص الطيور فسألتها :

ـ « هل للبط دور فى الموضوع ؟ »

هزت رأسها أن نعم ، وقالت بلهجتها الفرنسية الرديئة :

ـ « القصة كلها تبدأ عندما ينتقل الفيروس من الطيور المهاجرة المائية إلى الطيور المدجنة كالبط والدجاج .. هو كان معتادًا الحياة فى الطيور المهاجرة لهذا لم يكن يرى أى نفع للتطور وإعادة التصنيف .. ثم ينتقل إلى طيور لم يعتدها ولم يرها قط ، لهذا يقرر أن يجرى بعض التغييرات على تركيبه .. من هنا تبدأ المشاكل .. الجدل يدور حول ما إذا كان يحتاج إلى أن يصيب الخنزير كخطوة أخيرة قبل أن يصيب الإنسان أم لا .. هناك من يرون أنه قادر تمامًا على الانتقال المباشر من الدواجن إلى الإنسان .. ومن هنا يبدأ الوباء ... وباء (هونج كونج) الأخير نموذج لهذا ، وقد أصيب طفل صينى بالإنفلونزا ومات لأنه لعب مع البط فى فناء مدرسته الخلفى .. »

قلت لها وأنا أبعد الذباب عن وجهى :

ـ « إذن .. الخنزير هنا تدريب أخير على البشر .. والسؤال هو : هل يمكن أن يتجاوز الفيروس مرحلة التدريب هذه أم لا ؟.. »

هزت رأسها واتسعت عيناها .. أى أنهما صارتا فى حجم النقطة فوق حرف (الفاء) الذى تراه أمامك .. وبرزت أسنانها .. هذه طريقة الصينيين فى الابتسام ..

قالت لى :

ـ « يمكن أن تفهم الأمر كذلك .. »

ثم فرغت من فحص القفص الذى كانت طيوره بحالة طبيعية فابتعدت .. وبطرف عينى رأيت البائع المتشكك الكاره لنا يزفر الصعداء ... اتجهت إلى قفص ديكة رومية ووقفت تنظر له بعين متشككة من وراء عويناتها الغليظة ..

سألتها :

ـ « هل توجد طيور مائية هنا ؟ »

ـ « ولا خنازير .. إن الخنازير تشكل جزءًا مهمًا من بيئة الفلاح عندنا فى الصين .. لهذا القصة واضحة .. لكن هنا لا يوجد شىء واضح .. »

قررت أن ألقى قنبلتى فقلت :

ـ « إذن كل شىء يوحى أن الوباء جلب إلى (أنجاوانديرى) جلبًا .. »

قالت وقد برزت أسنانها أكثر :

ـ « أنا متأكدة من هذا .. لا أعرف إن كان قد حقن كما تحسب أنت أم لا .. لكن هذا الوباء دخيل .. »

قلت فى انتصار :

ـ « وشركة اللقاحات فعلتها عمدًا ؟ »

هتفت فى ذعر :

ـ « بحق الأجداد .. أنت مندفع فعلاً ..! .. لا .. لا .. شركات الأدوية واللقاحات قد تسوق عقارًا مؤذيًا أو عقارًا لم يجرب .. قد تلفق دراسات تزعم صلاحية هذا العقار .. لكن أن يبدءوا حربًا بيولوجية لا يمكن السيطرة عليها .. يحتاج المرء إلى خيال مجنون كى يتصور هذا ... لا .. لا .. أنا لا أتفق مع هذا الرأى بتاتًا .. »

لا أعرف لماذا يسفه الجميع منطقى برغم أننى أراه محكمًا حقًا ..

قلت لها فى حذر :

ـ « هل زرت تلك المزرعة التى بدأ فيها الوباء من قبل ؟.. أعنى قبل أن يتكون الفريق (هـ) ؟ »

قالت وهى تنتقل إلى قفص آخر :

ـ « قبل الفريق (هـ)؟.. طبعًا لا .. لقد وصلت إلى (الكاميرون) منذ أسبوعين ! »

شعرت بحيرة بالغة .. إذن هى لم تكن فى الكاميرون قبل الوباء .. معلوماتى كانت خطأ .. لقد قيل لى إنها هنا منذ فترة .. ومعنى هذا أنها ـ على الأرجح ـ لا علاقة لها بقصة بدء الوباء هذه ..

فى عقلى أخرجت مفكرتى التى دونت فيها الأسماء ، وشطبت اسمها بعد ما شطبت أسماء (شلبى) و(لى ـ فوان ـ هن) .. هكذا لم يبق فى القائمة إلا اسم واحد .. وأعتقد أن صاحب الاسم كان متحمسًا للشركة بما يكفى ..

(دو بوان) .. أستاذ الأمراض الصدرية ..

* * *

كلفنى (بارتلييه) بأن أذهب إلى المختبر لأراجع بعض العينات التى طلبناها للفريق (هـ) .. طبعًا لم أعد أقوم بأى عمل رسمى هذه الأيام سوى ما يطلبه منى الفريق ..

لم تكن (هيلجا) المفترسة هناك لحسن الحظ ، بل طبيبة فنلندية حسناء رقيقة .. صحيح أنها من ذلك الطراز الذى تشعر بأنه (نيجاتيف)

فيلم ملون .. شعر أبيض وعينان رماديتان وجلد أحمر .. وأنك تستطيع أن تطبع لها نسخة إيجابية ممتازة .. لكن لو قابلت (بعلزبول) نفسه فهو أفضل من (هيلجا) ..

طلبت منها أن تراجع ملفات الكمبيوتر وتقدم لى بيانًا بالفحوص التى طلبتها .. ثم جذبت مقعدًا وجلست جوارها أتابع الشاشة بعين وباقى المختبر بعين ..

هنا رأيت أحد عمال النظافة الكاميرونيين يدخل .. يتجه إلى الثلاجة فيفتحها .. ثم راح يخرج بعض الأكياس البلاستيكية ويلقيها فى سلة مهملات معه من الطراز الذى يتحرك على عجلتين ...

نهضت فى لهفة إلى الرجل . أين رأيت هذا الوجه من قبل ؟.. يبدو من النوع المألوف جدًا.. لا غرابة فى هذا على كل حال ما دام يعمل فى (سافارى) ..

سألته وأنا أشير إلى الأكياس :

ـ « ما هذا ؟.. لماذا تتخلص من هذه الأكياس ؟ »

قال فى كبرياء بصوت غليظ مميز :

ـ « الأستاذة (شليمان) أمرتنا بهذا .. تقول إن كل من هب ودب يلقى مخلفاته هنا .. لهذا ننظف الثلاجة من أى كيس لا نعرف محتواه .. »

الأستاذة (شليمان) هى (هيلجا) طبعًا .. ومعنى كلامه هذا مهم ..

ـ « هل نظفت الثلاجة منذ ثلاثة أيام ؟ »

قال فى كبرياء مماثل :

ـ « طبعًا دكتور .. لا أنسى هذا أبدًا.. »

ـ « وتخلصت من كيس أسود على الرف ؟ »

مط شفته السفلى فى مزيد من الكبرياء .. لا أعتقد أن (نيرون) امتلك هذه (الألاطة) ، وقال :

ـ « لا أذكر يا دكتور .. لكنى لا أترك كيسًا واحدًا غير مكتوب عليه .. كل شىء .. كل شىء .. »

ثم دفع سلة المهملات على عجلتيها واتجه للباب على حين استندت إلى باب الثلاجة البارد مفكرًا ..

إذن بحثى هذا لا يقوم على أساس ..لقد وضع (شيلبى) الدجاجة فى الثلاجة ولم يكتب شيئًا على الكيس ، وهكذا كان مصيرها التخلص منها عند أول عملية تنظيف .. وقائمة الموت التى أحملها هذه لا قيمة لها .. يمكن أن يكون أعضاء فريق (هـ) أبرياء ويمكن أن يكون أى واحد منهم مذنبًا .. لقد كنت أتبع أثرًا لا يقود إلى شىء ..

يمكن أن يكون (دو بوان) بريئًا ويمكن أن يكون أبا لهب نفسه .. لن أعرف أبدًا بهذه الطريقة ..

ومعنى هذا أن علىَّ أن أعترف بالفشل ..

لماذا يجب أن يكون هناك لغز ؟

ولماذا يجب أن أحل اللغز أنا ؟

(ولكن أين رأيت هذا العامل من قبل ؟)

* * *

ديفيد جيديون

بالنسبة لعلماء الأمراض يعتبر د. (ديفيد جيديون) من الأسماء المهمة جدًا .. إلا أنه فى (سافارى) يمارس كذلك مهام التشريح لحالات الوفيات التى لم يعرف سبب وفاتها ، وهو شىء نادر لأن الأهالى لا يسمحون بذلك غالبًا ..

د. (جيديون) كما هو واضح يهودى جدًا يذكرك باليهود فى الأدب الأوروبى فى القرن الثامن عشر .. ربما كان على شىء من التعصب الداخلى لكنه لا يسمح لهذا التعصب بأن يظهر فى سلوكه أو ممارسته المهنة ..

لهذا ـ يعترف ـ كان ميالاً إلى الطبيب الشاب (عبد العظيم) ، أو على حد قوله يحترمه ولا يحبه .. إن موضوع الخلاف العربى الإسرائيلى يخيم على علاقة الرجلين ، لكن (جيديون) كأى يهودى متدين يرتاب فى فكرة إسرائيل نفسها ويرى أنها خطأ فادح ، وأنها مجرد دولة علمانية تتظاهر بأنها يهودية لمكاسب سياسية . كان يرى فى (علاء) طاقة شباب متفجرة وولعًا بالعلم لا شك فيه .. وهذا شىء كان يفتقده فى الكثيرين . الخلاصة أنها علاقة معقدة من المقت والاحترام والحب لا يستطيع وصفها إلا (دستويفسكى) ذاته ..

قال لى (جيديون) حيث جلسنا هناك فى المشرحة البهيجة ، ومساعده الكورى يدون بعض الأوراق :

ـ « فى ذلك اليوم قمت بجولة فى سيارة (سافارى) مع بعض أعضاء الفريق .. أنت تعرف أن عملى هنا ومن العسير أن ترانى فى ضوء الشمس .. لهذا كنت مسرورًا فى ذلك اليوم ونحن متجهون إلى خارج (أنجاوانديرى) قاصدين أحد مستشفيات وزارة الصحة هناك ..

« كان (علاء عبد العظيم) يجلس هناك فى المقعد الأمامى ويثرثر مع السائق .. فجأة بدا كأنما هو رأى شيئًا فى الطريق .. كنا قرب مزرعة الدجاج التى بدأ منها الوباء والتى تقع قرب الوحدة ..

رأيته يصيح فى السائق أن يتوقف حالاً ..

ثم وثب من السيارة جريًا .. نظرت لأرى ما أثار اهتمامه .. لا أحد يحتاج إلى دخول الحمام بهذه اللهفة ..

هنا رأيت رجلين يقفان قرب المزرعة .. أحدهما يبدو متوسط الحال لكن معه ما يكفى من مال لارتداء بذلة صيفية .. أما الآخر فكان أصلع الرأس غليظ الشفتين يقف بفانلته الداخلية وينظر لـ (علاء) بكبرياء ..

رأيت (علاء) يجر هذا الأصلع من ذراعه ويعود به لنا وهو يكرر :

ـ « الآن عرفت أين رأيتك .. »

ثم أشار لرأسه ، وقال :

ـ « حينما تراه مرتديًا اليونيفورم لا تعرف أنه ذات الرجل »

وأمامنا وقف ، وقال بطريقة درامية :

ـ « هذا الفتى الوسيم عامل نظافة فى (سافارى) .. لكنه الآن سيفسر لنا برقة لماذا يتعامل مع السيد (ماجومبا) صاحب المزرعة .. »

لم نفهم شيئًا . كنا ـ الجالسين فى السيارة ـ (شيلبى) وأنا وذلك الطبيب الصينى الذى لا أعرف اسمه .. وقد بدا لنا كلام الفتى غير مترابط ، لكن الرجل كان يفهم .. عيناه تقولان إنه يفهم ..

تكلم بالفرنسية وبصوت غليظ يبدو كمطربى (التينور) :

ـ « لا مشكلة يا دكتور .. أنا لا أخالف قانونًا .. »

هنا دنا منا (ماجوبا) هذا والذى عرفنا أنه مدير المزرعة ، وهو كاميرونى شديد السواد .. قال لنا فى عدم فهم :

ـ « هل لى أن أعرف الخطأ الذى ارتكبه (جون) ؟ »

فكر (علاء) قليلاً وبدا بالفعل عاجزًا عن أن يجد شيئًا خطأ فى أن يقف رجلان يتحدثان .. إلا أنه قال :

ـ « هذا هو الرابط بين وحدة (سافارى) وبينك .. لقد سرق منا شىء مهم ، وهو من أخذه باعترافه نفسه .. وكونه يعرفك يجعلنى أقحمك فى القصة .. »

قال (ماجوبا) وقد بدت الشراسة على ملامحه :

ـ « أية سرقة ؟.. هل لك أن تكون أكثر وضوحًا ..؟ »

- « الدجاجة التى كانت فى الثلاجة ! »

هل هناك دجاج فى الموضوع ؟.. لقد جن هذا الفتى تمامًا .. نحن غارقون فى وباء شامل وهو يفتش عن دجاجة اختفت من ثلاجته !..

قال (ماجوبا) :

- « لا أعرف عن أى شىء تتكلم .. (جون) يعمل معى فى المزرعة وهو عامل نظافة فى وحدة (سافارى) .. لو كان القانون يحرم الجمع بين عملين فلتخبرنى .. لا تنس أننا بلد فقير وأن هذا البائس يعول أسرة .. »

ثم أردف :

- « لسنا فى بلادكم الثرية .. ألست فرنسيًا ؟.. لكنه هذا يحدث هنا ..! »

بصعوبة تغلب (علاء) على ضغط أعصابه ، وقال :

- « اسمع .. هذا الرجل يعمل فى (سافارى) .. وقد ظهر الوباء فى مزرعتك أول ما ظهر .. فهل جلب الوباء معه من (سافارى) ؟.. أم أنت الذى جلبت الوباء وتريد إخفاء أثر ما قمت به ؟ »

- « هل تعتقد أننى راغب فى خراب بيتى وتدمير ثروتى ؟ »

- « هذا يجعل الاحتمال الأول هو الأقرب للحقيقة .. لقد جلب لك الوباء من (سافارى) .. »

هنا تدخل العجوز الأمريكى الثرثار (شيلبى) :

- « (علاء) .. لم تظهر حالات فى (سافارى) وليست لدينا عينات من الفيروس .. »

- « لربما حمل العدوى ؟.. أنت تعرف قصة (مارى التيفويدية Typhoid Mary) التى كانت مربية توزع التيفويد فى الولايات المتحدة على كل بيت تدخله دون أن تصاب هى »

قال (شيلبى) باسمًا :

- « لم نسمع عن حملة لفيروس الإنفلونزا .. »

هنا قال (جون) وقد بدت عليه سمات المجرم الذى سقط فى الشرك :

- « أنا لا أجلب شيئًا مهمًا .. فقط عننى بألا يعرف د. (باركر) بالأمر .. »

طبعًا .. د. (باركر) نائب المدير هو من يهمهم ولا يعنيهم المدير نفسه .. لأن (باركر) هو الأكثر شراسة وقسوة .. إنه الإيذاء يمشى على قدمين ..

قال (علاء) وهو ينظر لنا :

- « نعدك .. فقط نريد أن نعرف .. »

غطى (جون) عينيه كأنما هو يبكى ، وقال :

ـ « كنت أحضر له المخلفات الطبية التى نتخلص منها .. المفترض أن نحرقها لكننا لم نفعل .. أكياس الدم التى انتهى تاريخ صلاحيتها .. مخلفات الجراحة .. عينات المختبر .. كل هذا كنت أجلبه له ليخلطه بطعام الدجاج .. هذه طريقة لرفع محتوى البروتين .. »

تبادلنا النظرات وانتصبت شعورنا .. وصحت :

ـ « يا للهول !! »

توقف (علاء) وقد بدا موشكًا على القىء ولابد أنه تذكر الدجاجة التى التهمها .. هنا قلت :

ـ « ليست هذه السابقة الأولى .. يعتقد العلماء أن إطعام الدماء للأبقار هو ما بدأ سلسلة (ياكوب كروتزفلت) الشهيرة أو ما نعرفه باسم (جنون البقر) .. »

قال (ماجوبا) صاحب المزرعة فى فخر :

ـ « لم أرتكب شرًا .. هذه مخلفات عالية البروتين وكانت ستحرق .. لماذا لا أستخدمها ؟.. خاصة أن (سافارى) قريبة منا ؟.. »

قال (علاء) وهو ينظر إلى الأرض :

ـ « لهذا صارت قدماك بهذا الشكل ؟ »

نظر الرجل إلى قدميه ، وهتف :

ـ « أى شكل ؟ »

هنا كانت قدم (علاء) قد طارت كالمقلاع لتركله فى ذقنه .. كانت ركلة قوية ألقت بالرجل أرضًا .. فلابد أنه حسب ثورًا هائجًا قد رفسه .

ودون كلمة أخرى وثب الفتى ليركب السيارة وأمر السائق بالتحرك ، وبينما نحن نبتعد هتف فى الرجلين :

ـ « وعدت بعدم إفشاء السر أو اتخاذ إجراء لكنى لم أعد بعدم الضرب .. »

ثم لوح بإصبعه :

ـ « سوف تتلقيان درسًا لن تصدقا مدى شناعته .. لكن من دون أن أحنث بوعدى .. أى إننى سأفعل كل شىء قذر بنفسى .. إن ساعة الانتقام قد جاءت أيها الخنزيران ! »

فى هذه اللحظة أكلت السيارة مطبًا جعل رأسه يصطدم بالسقف فتأوه وكف عن التهديد ..

استدار نحونا بينما السيارة تنهب الطريق ، وقال :

ـ « إذن العدوى جاءت للدجاج من مخلفات (سافارى) .. القصة واضحة .. »

قال (شيلبى) فى ضيق :

ـ « وددت لو ركلت ركلة أو ركلتين مثلك .. لكن أى شىء واضح فى القصة ؟.. من أين جاءت عينات الفيروس إلى سافارى ؟.. ثانيًا ماذا عن أثر الحقن ..؟ »

قال (علاء) بلهجة سمعها كثيرًا على ما يبدو وعلى سبيل التهكم :

ـ « إن الدجاج يحقن أحيانًا .. لا يعنى هذا شيئًا .. أنت تتكلم عن حرب بيولوجية .. »

ـ « والكلام عن البيطرى الصينى الذى أخبرتنى به اليوم ؟ »

ـ « إما أنه لم يكن صينيًا أو كان صينيًا آخر .. هذا الخيط لا قيمة له .. »

هنا تساءل (شيلبى) :

ـ « ما زال السؤال هو : من أين جاءت هذه العينات ؟ »

★ ★ ★

الحقيقة أننى لم أرد أن أعلق حتى أتحقق بنفسى ..

وحينما عدت إلى المشرحة دخلت مكتبى وفتشت فى خزانتى ...

هناك ذلك الإناء الزجاجى الذى يحوى أنسجة غارقة فى مادة حافظة ، والذى أضعه هنا بالذات ..

لا وجود له .. فعلاً لا وجود له ..

لقد أرسل لى د. (تاونبرجر) هذه الأنسجة من الولايات المتحدة منذ عام 1997 كى أشاركه تلك الورقة العلمية التى نجريها عن فيروس عام 1918 .. هذه أنسجة من رئة تلك الفتاة البدينة التى وجد جثتها تحت الثلوج فى ألاسكا .. وقد رأى أن يرسل لى بعضها كى أدرسها بنفسى .. وأنذرنى بعنف : قد يكون الفيروس سليمًا وحيًا بعد كل هذه الأعوام .. أردت أن تصلك عينة حية منه ، لهذا تعمدت عدم استخدام مادة (فورمالدهايد) كى لا تقتله .. كن حذرًا فى التعامل معه ..

وضعت الإناء فى خزانتى التى لا تقفل على كل حال ، وانشغلت إلى حد أننى نسيت هذه الورقة العلمية تمامًا ..

يمكن الآن أن أتخيل المشهد ..

(جون) ـ ذلك العامل ذو الفانلة ـ ينظف الغرفة بينما أنا غير موجود .. يقرر أن يفتح خزانتى ليشاهد تلك العينات المرعبة .. يشاهدها ويضحك مستمتعًا بشجاعته .. لكنه أخرق .. يقع الوعاء ويتهشم . وتتناثر منه تلك الأنسجة مع السائل الحافظ ..

ماذا يفعل ؟..

إنه فى ورطة ...

هكذا يقرر أن يخفى آثار الجريمة .. يجمع الزجاج كله ويجفف السائل ، ويقرر أنه لو كان محظوظًا فلن ألاحظ ما حدث .. لن ألاحظ اختفاء إناء وسط كل هذه الأوانى وهو ما حدث ..

ثم يجمع المخلفات مع باقى مخلفات الوحدة ، وعندما تحين ساعة الانصراف يحمل كل هذا البروتين البشرى إلى مزرعة الدواجن ..

الآن التهم الدجاج الفيروس H1N1 الذى اعتاد مهاجمة الخنازير .. لكن هذا الفيروس الذى صمد ثمانين عامًا تحت الثلوج يقرر أن يتعلم مهاجمة الدجاج .. وهكذا تكون لدينا فيروس يستطيع أن يهاجم البشر كذلك ..

تلك الفتاة الحسناء من ألاسكا لم تتصور أنها بعد ثمانين عامًا ستبدأ وباء جديدًا فى الكاميرون !

وبشكل ما كنت أنا مسئولاً عما حدث ..

وهكذا غادرت الغرفة لأخبر رئيس الفريق .. (بارتلييه)...

★ ★ ★

أنا (توماس كايندرد) .. محرر الشئون الطبية فى مجلة (أدفانسز Advances) . لقد حكيت لكم ملابسات هذا المرض الغريب الذى اجتاح (أنجاوديرى) والذى تراجع أخيرًا ولله الحمد بعد شفاء الضحايا أو موتهم وبعد إعدام الطيور ..

وهكذا أعلن د. (بارتلييه) حل الفريق ..

لقد أنهيت هذه الأوراق التى تضمنت عدة لقاءات صحفية ، والعديد من المراسلات عبر الإنترنت .. وفى رأيى أنها نموذج غريب لعدوى تُبعث بعد ثمانين عامًا ، وإن كنت أرجح أن الفيروس قد ضعف كثيرًا وإلا لاجتاح العالم كله كما حدث عام 1918 ..

لكن د. (شرودنج) و(بارتلييه) يعرفان جيدًا أن الوباء الحقيقى المرعب قادم لا شك فيه .. سيبدأ من مكان ما فى الصين أو (هونج كونج) .. ساعتها لن يكون لنا أمل إلا فى رحمة الله ، ثم البيولوجيا الجزيئية وسرعة تركيب اللقاح .

سألت الأستاذين عما إذا كان الفيروس الجديد سيأتى من الخنازير أم الدواجن ، فقالا وهما يتبادلان النظرات إن هذا ليس فى نطاق عملهما فى (سافارى) .

توماس كايندرد
مجلة (أدفانسز Advances)
أنجاونديرى



سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد كى يظل حيًا وكى يظل طبيبًا



د. أحمد خالد توفيق

عن الطيور نحكى

عن الوباء .. عن الالتهاب الرئوى الذى لا يستطيع الأطباء السيطرة عليه .. عن الدجاج الذى يسقط ويموت فى ثوانٍ .. عن قرى ألاسكا التى هلكت بالكامل ودفنت تحت الثلوج .. عن العلماء الذين يفتشون بين جثث الجنود الأمريكيين الذين ماتوا عام ١٩١٨ م .. عن الموت .. عن الرعب .. عن الطيور نحكى ..



العدد القادم

سيد الجينات

الثمن فى مصر 300

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

